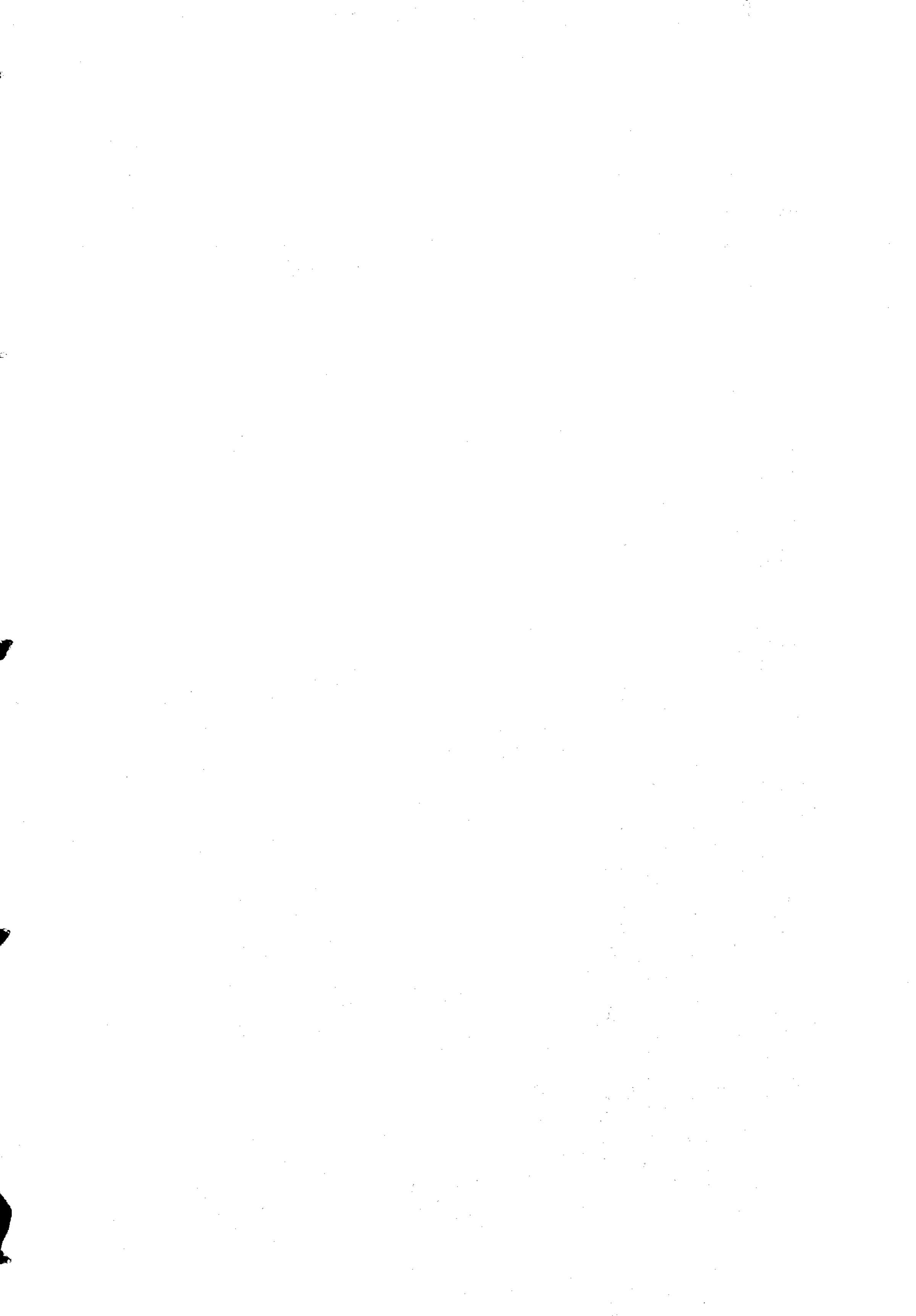
علي عبده بركات

اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية



بسم الله الرحمن الرحيم

الناشـــر

تهـــامـــة

جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤

اعترافات أدبائنا
في
سيرهم الذاتية

مقدّمة

دراسة تهدف إلى التعرف على سمات فى السيرة الذاتية وألوانها .. ونصيب التراث العربى من هذا الفن .. ومتابعة تطوره حتى استقام له العود فى الأدب العربى الحديث .

وذلك بالعرض والتحليل لنتاج الأدباء العرب فى مجال سيرهم الذاتية التى ضمنوها اعترافاتهم .

المؤلف

السِّيرة الذاتية في تراثنا العربي

تتميز السير الذاتية بأن كاتبها يكشف عن خبايا نفسه ، ويعرض لنشأته ، وتربيته ، وأطوار حياته ، وما اكتنفها من خبرات وتجارب ، وما صادفه من مواقف ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى لازمت حياته . بحيث يكون عرضه متسماً بالصراحة والشجاعة التى تمكنه أن يخرج من ذاته ، ويقف من نفسه موقفاً موضوعياً ، ولا يخشى مواجهة حقائق حياته مهما علت أو صغرت قيمتها .

وتتفاوت السير الذاتية فى توفر هذه الخصائص لها ، لأن الكاتب عندما يصدق فى سرد سيرته ، واستبطان أعماقه ، فإنه يعبر عن شعوره بذاتيته ، وفرديته ، أى صورته الشخصية كما تبدو فى مرآة الذات ، ثم يعرض نفسه ملتحماً بالآخرين ، فنعرف شخصيته كما تبدو فى نظر المشاهد من الخارج ، أى صورته منعكسة فى مرآة الغير .

والسير الذاتية كشف عن الشخصية أثناء عملية الصراع التى تقوم بين شعور الكاتب بذاته ، وموقف المجتمع منه ، ومدى خضوع أحد الطرفين للآخر .

وتكمل الصورة عندما تتسم بالصراحة والوضوح والشمول الذى يبرز صفات الكاتب الجسمانية والمزاجية والعقلية والخلقية ، بما تنطوى عليه هذه الصفات من أفكار وميول وأذواق وعقائد ومثل ودوافع ومشاعر وقدرات وعادات وعواطف واتجاهات وصحة ومرض وغير ذلك مما يظهر الموروث والمكسوب فى تكوين سمات شخصيته بوجه عام .

وقد اطلع العرب قديماً على بعض السير الذاتية فى لغات أجنبية ، وترجموها ، وكان أبرزها ما كتبه الفيلسوف الطبيب اليونانى « جالينوس » (١٣٠ ـ ٢٠٠) وترجمه « حنين بن اسحق » (ـ ٢٦٠ هـ) ، وقلده فى سيرته .

وتبعه « محمد بن زكريا الرازى » (ـ ٣١٣ هـ) ، ثم غزر انتاج الفلاسفة والعلماء والأدباء والرحالة والصوفية والساسة فى تسجيلهم لسيرهم ، وإبراز ما سلكوه فى تربيتهم ، ونشأتهم ، وأنماط سلوكهم ، وما صادفوه من محن ، وما شاهدوه من أحداث ، وما خلفوه من مؤلفات ، أمثال : الجاحظ ، وابن حزم ، والغزالى وغيرهم .

وكتاب « الاعتبار » الذى وضعه « أسامة بن منقذ الكنانى » (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ) يعد أقدم سيرة ذاتية فى تراثنا العربى ، تقع فى قرابة ٢٤٠ صفحة . وكتبها قبل وفاته فى شيخوخة عمره الذى امتد إلى ٩٦ عاماً ، فاتسمت بطابع التداخل بين ماضيه وحاضره ، والتداعى مع إجهاد الحافظة فى استرجاع ما فات من أطوار حياته وأحداثها . وعنى بتدوين نشأته وأثر والده فى تنشئته على الشجاعة والنخوة والفضائل ، وتحفيظه القرآن الكريم ، وما قام به من رحلات صيد وأسفار وما سمعه من نوادر وفكاهات وتعليقه على وقائع عصره . وقد حقق مخطوطه « الاعتبار » المحفوظ فى مكتبة « الأسكوريال » بأسبانيا « فيليب حتى » وطبع بجامعة « برنستون » فى أمريكا عام ١٩٣٠ م .

ويعتبر « ابن خلدون » (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ) فى سيرته الذاتية « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً »[١] أول مفكر عربى مسلم كتب عن نفسه ترجمة شخصية ذاتية مستفيضة تقرب من مفهوم السيرة الذاتية بمعناها الحديث حيث تحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له ، وأحاط به من حوادث منذ نشأته إلى قبيل وفاته بأحد عشر شهراً (ذى القعدة ٨٠٧ هـ) فجمعت بين الإحاطة والشمول والاستيعاب . فلم يغفل شيئاً مما عمله ، أو وقع له إلا سجله ، حتى الأمور التى يحرص الناس عادة على كتمانها ، وعدم الإفضاء بخباياها .

ويختص « ابن خلدون » عن غيره ممن سبقوه فى هذا الفن الأدبى أو عاصروه أمثال

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون : ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ـ تأليف عبد الرحمن بن خلدون وتحقيق محمد بن تاويت الطبجى : القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر المصرية ، ١٩٥١ .

« لسان الدين بن الخطيب » فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، و« الحافظ بن حجر » فى كتابه « رفع الآصر عن قضاة مصر » الذين كانوا يلحقون سيرهم موجزة أو يضمنوها ثنايا كتبهم ، بأنه بعد أن كانت سيرته الشخصية « التعريف بابن خلدون » تذييلاً لكتابه : « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » .. تفطن إلى هذا الفن الأدبى ، وما ضمنه فيه من سيرة ذاتية مدادها حياته ، فأعاد كتابة « التعريف بإبن خلدون » فى نسخة مستقلة ، أضاف إليها ، ونقحها ، وتوسع فى بعض فقراتها ، واستدرك ما عساه قد يكون أغفله من تفاصيل ، وأصبح النص الجديد كتاباً مستقلاً عن « العبر » .

* * *

ثم لا نكاد نلتقى بهذا اللون من الفن الأدبى إلا على حال من الندرة حتى عام ١٨٥٥ م حينما ظهر كتاب « الساق على الساق فى ما هو الفارياق »[١] تأليف أحمد فارس الشادياق (١٨٠٥ ـ ١٨٨٧ م) .

وقد طبعه أثناء إقامته فى فرنسا ، وترجم عنوانه باللغة الفرنسية إلى « حياة ومغامرات الفارياق » .

وتضمن فى تضاعيفه فصلاً بعنوان « فى إثارة رياح » يعرض فيه لحياته منذ طفولته حتى تفتح ملكاته العقلية وظهور اهتماماته اللغوية ، ومشاهداته فى البلاد التى زارها ، وخبراته فى دنيا المرأة على نحو صريح .

وفى عام ١٨٨٨ م ظهر كتاب « الخطط التوفيقية الجديدة »[٢] الذى وضعه على مبارك (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣ م) والذى عمد إلى إكسابه الخصائص التى تميز عن « خطط المقريزى » بذكره تراجم أعلام البلاد ، وأفرد لحياته ستين صفحة عرض فيها نشأته ، وتعليمه ، ووظائفه التى شغلها ، وأفكاره الإصلاحية التى نفذها .

وفى مفتتح القرن العشرين بدأ الأستاذ الشيخ الإمام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م)

(١) فارس بن يوسف الشدياق ـ الساق على الساق فيما هو الفارياق أو أيام وشهور وأعوام فى عجم العرب والأعجام . باريس ، رافائيل كحلا ، ١٨٥٥ م .

(٢) على مبارك ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . عشرون جزءاً . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٦ هـ .

تدوين سيرته الذاتية تلبية لرغبة « ويلفردبلنت » و« السيد رشيد رضا » ، قبل اشتداد مرضه الأخير عليه ، ثم وفاته . فلم يكمل إلا فصلاً عنوانه « أهلى ـ بيته وبيئته »[1] عرض فيه حال أسرته وتربيته الأولى وقد ضمنها « السيد رشيد رضا » سيرة الإمام التى دونها للأستاذ الإمام ، ولذا تعد سيرة تلميذ لأستاذه تترجم لهما معاً فى ذات الوقت .

وفى العشرينات من القرن العشرين يقدم الأديب المفكر السورى محمد كرد على (١٨٧٦ ـ ١٩٥٤ م) « خطط الشام » (١٩٢٥ م) حيث كانت صفحات سرد حياته فيها لا تتجاوز بضع عشر صفحة تعرض نشأته وتعليمه ووظائفه ، واهتماماته بالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى ورحلاته .

* * *

ومن الجلىّ أن هذه السير الذاتية فى جملتها لم توضع مستقلة أصلاً ، ولكنها كانت أجزاء من مؤلفات ، وصاحب السيرة الذاتية لم يكن يغوص فى أعماق ذاته ، ويأتى على ذكر الأحداث التى وقعت له فى أطوار حياته ، وشكلت معالم بارزة فى تكوين شخصيته ، أو يصرح بزلاته وأخطائه ، والدوافع التى كانت كامنة وراءها ، ورسم صورة للعصر الذى عاش فيه بكل أحواله وملابساته فى صدق وموضوعية ، ذلك أن خصائص فن السيرة الذاتية المميزة له لم تكن قد اتضحت بعد كاملة فى الأدب العربى .

وقد أسهم الأدب العربى فى إبراز معالم فن السيرة الذاتية وما يتسم به من جرأة فى سرد خفايا النفوس ، والكشف عن طوايا الضمائر ، والجهر بما هو خبيء فى الأغوار ، وذلك فى ألوان متعددة من الفنون الأدبية ، كان أظهرها الاعترافات والمذكرات واليوميات والرسائل[2] .

* * *

---

(١) السيد محمد رشيد رضا ـ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . جـ ١ . القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٩٣١ ص ٢٥

(٢) The shorter Oxford English dictionary Ed. 1959 - P.P. 125 - 126. 1546, 1235, 1836 Webster's Third New International Dictionary Ed. 1961, P. 147

جذور السيرة الذاتيّة في أدب الاعترافات

كان للاعترافات التى ظهرت فى الأدب الغربى فضل إرساء المعالم التى ينفرد بها أدب مكاشفة الذات . إذ يُقدم الكاتب على كشف خفاياه ، وإماطة اللثام عما ينطوى فى أعماق سريرته ، وما لا يعرفه سواه من أسرار حياته .

ولم يظهر فنّ الأدب الاعترافى دفعة واحدة . ففى الأدب اليونانى لم تكن فكرة تطور الفرد التى تظهر فى ترجمة الحياة الذاتية شائعة عند اليونانيين ، لأنهم عنوا بمرحلة النضج والقمة وازدهار الإنسان فى الأربعين من عمره . وكان يطلق عليها AKME : = αχμγ [1]
ولذا لا نجد عندهم سيراً ذاتية ، اللهم ما ضمنه الفلاسفة من إشارات إلى حياتهم .

أما الرومان ، فسادتهم نظرة واقعية ، جعلت ما هو شخصى فى الأدب يستهويهم ، فظهر منذ القرن الأول للمسيحية كُتاب وشعراء عرضوا سيرتهم فى صراحة لأن الديانة المسيحية تدعو إلى مراجعة الضمير ، ومحاسبة النفس .

ومن بين المحاولات المبكرة فى فن السيرة الذاتية تنهض « اعترافات القديس أوغسطين » (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) شاهداً على قدرة صاحبها وجرأته حيث صور نفسه دون مواربة أو تحفظ .

---

(١) د . أحمد فؤاد الأهوانى ـ فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ ص ٣٨

ثم توالت بعده « الاعترافات » التى كان من أشهرها « اعترافات مدمن أفيون إنجليزى » « التوماس دى كوينسى » (١٧٨٥ ـ ١٨٥٩ م) ، و« اعترافات إنسان فى شبابه » « لجورج مور » (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣ م) ، وكلها أبانت عما ينبغى أن يتحلى به كاتب الاعترافات من صدق ، ونزاهة ، وصراحة ، وجهر بما اكتنف حياته من أسرار[١] .

وقد اطلع رواد أدبنا العربى على « الأدب الاعترافى » وكان لهم فيه رأى يبين مدى استجابتهم أو عزوفهم عن هذا اللون الأدبى .

يقول « عبد الرحمن شكرى » فى كتابه « الاعترافات .. وهو قصة نفس » ، « مهما عظم نصيب صاحب الاعتراف من الصراحة ، فلابد أن يكون عنده من الجبن والحزم واحترام النفس ما يغريه بإخفاء كثير من نقائصه ومعائبه » (ص ٣) .

ويرى « أحمد أمين » فى كتابه « فيض الخاطر » جـ ٩ أن « الكُتاب اعتادوا أن يقصروا الاعترافات على المسائل الجنسية .. أما الكلمة نفسها فواسعة شاملة تشمل هذا النوع وغيره من الفضائل » (ص ١٩٦) .

أما « العقاد » فيرى فى كتابه « أنا » ان الاعتراف « لن يكون اعترافاً فى رأى بعضهم إلا إذا كان اعترافاً بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه » (ص ٢٦٦) .

***

(١) Drink Water, John The Out Line of Literature London. 1950 P.P. 483, 754

خصائص السيرة الذاتية

لقد هيأت « الاعترافات » لظهور فن السيرة الذاتية ، وازدهاره ، وتنوع ألوانه وأشكاله .

وأرخ « قاموس أكسفورد » لميلاد عبارة « سيرة ذاتية » بعام ١٨٠٩ م ، ويشير مختصر قاموس « أكسفورد » إلى تطور معناها الذى صار عام ١٨٠٩ م يعنى « كتابة إنسان لتاريخه ، أو قص حياة إنسان بنفسه »[١] .

وتتميز بأن كاتبها هو صاحب السيرة ذاته ، ولذا تتضمن معلومات فيها أكبر جانب من الصدق ، لأن الشخصية الرئيسية فى السيرة تظهر كشاهد على الأحداث التى تُسجل ، ولا يستطيع أن يروى التجربة سوى من عاناها .

بيد أن تسجيل سيرة الحياة الذاتية تقابلها معوقات أهمها تعذر استرجاع الذكريات . اذ كثيرون ينسون ماضى حياتهم ، لاسيا طفولتهم ، وما يذكرونه عنها هو ما رواه لهم الآباء والأجداد .

و« ميكانزم » النسيان نفسياً يقوم بدوره فى طمس حقائق الحياة أو ذكرها ، فكاتب السيرة الذاتية ربما كان بوعى أو دون وعى ، يستبعد ما لا ترتاح إليه نفسه من أمور ، فغالباً ما ينسى الإنسان الأحداث التى كان لها وقع مؤلم فى سيرته ، وذلك ما لا يمكن أن يتجنبه حتى الكُتاب الذين عُرفت عنهم الصراحة .

وبعض كُتاب السير الذاتية يذكرون ماضيهم ويدونونه ليعرفوا إلى أى حد أثر ذلك فى

(١) مادة Autobiography فى دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ط ١٩٦٨ م ص ٨٥٤ وما بعدها .

وجهات نظرهم السياسية ، ومعتقداتهم الدينية ، وتقلباتهم العاطفية ، كما فى « تاريخ حياتها » « لجورج صاند » .

وآخرون يكتبون سيرتهم نتيجة إحساسهم بالعار ، أو لديهم الشجاعة للإفضاء بتجاربهم الجنسية مثل « روسو » و« ستاندال » و« جيد » .

وبعض السير الذاتية تعبر عن تجربة وخبرة فى التربية عاشها أصحابها ، كما فى سيرة « هنرى آدامس » و« جون ستيورات ميل » و« هيلين كيللر » .

وبعض السير الذاتية تترجم لأصحابها من خلال معاناة خبرة روحانية كما عند « كاردينال نيومان » و« سير أدموند جوس » .

وعلى أية حال فإن ما تسجله السيرة الذاتية يقابل دائماً بالاهتمام والفضول ، لأنها تتضمن عواطف الإنسان فى تميزه ، وتفرده ، وكاتبها مضطر أن يركز انتباهه على الأحداث الهامة ، والمتميزة فى حياته ، وإلا فسيجد نفسه إزاء عدد ضخم من الصفحات التى لا تحتمل قراءتها .

وأنضج السير الذاتية ما كتبه « جوته » فى كتابه « الشعر والحقيقة » وحاول فيه أن يعيد النبض إلى الحياة فوق سطور سيرته ، وكان يرى أن كتابة الإنسان لسيرته بمثابة مزج الشعر بالحقيقة .

ومن أعمق السير الذاتية ما كتبه « مارجيرى جيبون » حيث عبر عن تحولاته العقلية ، ومتغيراته النفسية .

وأقدم سيرة ذاتية فى الأدب الإنجليزى ما كتبته « مارجيرى كامب » بعنوان « كتاب مارجيرى كامب » فى مطلع القرن الخامس عشر ، وقد اكتشف هذا النص عام ١٩٣٤ .

وشهد القرن الثامن عشر عديداً من السير الذاتية التى صارت فى عداد الروايات الكلاسيكية أدبياً ،مثل السيرة الذاتية « لبنجامين فرانكلين » ، وزادت زيادة تفوق الحصر فى القرن اللاحق ، فظهرت سيرة « الفونس دى لامارتين » ، و« رنيان » و« ريسكن » و« فكيم جورجى » وغيرهم .

* * *

ألوان من السِّيرة الذاتية

المذكرات :

المذكرات أحد الأشكال الأدبية التى يصعب فصلها منطقياً عن السيرة الذاتية ، إلا أن كاتبها عادة شخص لعب دوراً بارزاً فى مجرى الأحداث ، أو كان له حظ مراقبتها ، وملاحظتها عن قرب ، ومعايشتها عن كثب ، مما يتيح لصاحبها متابعة التأريخ لها .

وظلت كلمة « مذكرات » قبل القرن الثامن عشر تطلق عادة على الأعمال التى سميت فيما بعد « سيراً ذاتية » .

والفرق بين الشكلين يرجع إلى ما يحويه من كشف كاتبها عن ذاته فى المذكرات ، إلا أن الأولوية فيما يعرض الكاتب هى التى تحدد سمة العمل ، أهى التركيز على دخيلة نفسه ، أم على الأحداث الخارجية ؟

فالمذكرات سجل للأحداث ، تعرض موضوعاً يعتمد كاتبه فى سرده على المعرفة الشخصية المباشرة ، أو على الإشارة إلى مصادر خاصة استقى منها معرفته به .

وكاتب المذكرات يقص تاريخ عصره من خلال رؤيته ، ويروى ما شاهده وهو فوق مسرح الأحداث ، وهو يختلف عن المؤرخ الذى يتعامل مع الحقائق من وجهة نظر موضوعية ، ولذا فإن كثيراً من المذكرات يكتبها جنرالات ورجال سياسة ، وما يقدمونه ليس تاريخاً بقدر ما هو تبرير لأحداث سيئة يريدون التخلص من مسؤولياتها ، ويؤكدون لأنفسهم المنجزات التى تمت بنجاح .

ومن الخطأ أن يتناول كاتب المذكرات ، الأحداث كمؤرخ ، لأنه إذا أعطى أهمية للخلفية التاريخية العامة ، وحاول أن يفسر الأحداث التى لم يشترك فيها ، فإنه يتجاوزدوره ، ويقحم نفسه فى موقف قد يؤدى به إلى تزييف الحقائق .

فأسلوب المذكرات يختلف عن أسلوب كتابة التاريخ ، إذ أن الأخير يتضمن فترة زمنية معينة تتابع فيها الأحداث فى حركة مستمرة ، بينما الأول أقرب إلى أسلوب الرواية ، بما تتضمنه من تسلية وغموض ، وعنف . والمذكرات على الرغم من ذلك تمت بصلة إلى السير الذاتية والتاريخ . وخير المذكرات ما كان الجانب التاريخى فيها يروى من خلال عيون إنسان عاش الأحداث التى يصفها .

وفى القرن السابع عشر ظهر كثير من المذكرات التى كتبتها نساء عبرن عن جوانب مثيرة من حياة المرأة فى ذلك القرن .

وكانت صاحبات المذكرات يعرضن سيرهن من خلال عرضهن لسيرة إنسان وثيق الصلة بهن ، وارتبطت به حياتهن فى أهم مراحل تطورها ، مثل مذكرات « لوسى أبسلى » عن « حياة الكولونيل هوتشينون » ، ومذكرات « مارجريت لوكاس » عن زوجها « الماركيز وليم » .

وعرف الأدب العربى الحديث مذكرات كتبها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأحمد عرابى ، وأحمد شفيق باشا ، ومحمد كرد على وعبد الرحمن الرافعى ، وهيكل وعبد الله النديم ، ولطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى .

وأبرز هذه المذكرات ما كتبه « شفيق باشا » بعنوان « مذكراتى فى نصف قرن » ، فصور الحياة السياسية من خلال نظرته فى الفترة ما بين ١٨٨٣ ـ ١٩٢٣ م ، و« مذكرات فى السياسة المصرية » للدكتور محمد حسين هيكل وتشمل الفترة من ١٩١٢ إلى ١٩٣٧ م .

***

اليوميات

واليوميات صورة من صور السيرة الذاتية يكتبها صاحبها يوماً بيوم A Day to Day حيث يدون ملاحظاته بالنظام الذى وقعت به الأحداث التى شاهدها، أو كما رويت له من شهود عيان.

ولهذا النهج حسناته وسيئاته ، إذ يعين كاتبه على ألا ينسى الوقائع ، لأن من السهل تذكر الأحداث حال وقوعها . إلا أن هذا التسجيل اليومى يعيبه افتقاده المراجعة والتمحيص والتثبت مما كتب فى حينه .

وقيمة بعض اليوميات فى كشفها عن شخصية صاحبها أو لأنها تزخر بالتفاصيل وتصوير قطاعات من المجتمع أو حقبة من الزمن . وهذه تتيح للباحث أن يقارن من خلال اليوميات المتعددة وصف الفترة الزمنية الواحدة ، ويقف على وجهات نظر متباينة لحوادث متماثلة .

وهناك فرق بين اليوميات الوثائقية واليوميات القصصية ، أو التى تضم نوادر فكاهية .

ولا شك أن ما تتضمنه اليوميات من أحاديث جرت ، وأحداث وقعت ، وانطباعات شخصية ، وفكاهات يجعل قراءتها متعة ، وهذا يتحقق بقدر ما يبتعد كاتب اليوميات عن محاولة أن يكسبها القيمة التاريخية .

والدافع إلى كتابة اليوميات رغبة الإنسان فى أن يسجل اتجاهاته الدائمة التغير فى عصر تجرى فيه الأحداث بسرعة متلاحقة .

وكاتب اليوميات يضمنها انطباعاته ومزاجه السريع التقلب إزاء المثيرات اليومية ليكسبها الصدق والصراحة .

ومن أشهر اليوميات ، « يوميات صمويل بيبس » و« يوميات إيفيلين » اللتان تفيضان بمعلومات وتفاصيل دقيقة عن القرن السابع عشر .

وهناك فنانون احتفظوا بيوميات لأعمالهم الخلاقة مثل « كوتو » الذى سجل يوميات فيلم من بدايته حتى آخر لقطة فيه ، و« سومرست موم » الذى دون ملاحظاته اليومية أثناء ممارسته الخلق الأدبى .

وعرفت الصحافة المصرية اليومية اليوميات التى بدأ نشرها فى « الأخبار » و« أخبار اليوم » عام ١٩٥٣ . وكان من أشهر كتابها عباس محمود العقاد الذى جُمعت يومياته تحت عنوان « اليوميات » وكانت أول يومياته بتاريخ ١٤ ديسمبر عام ١٩٥٣ م ، ويقول العقاد : « لا يفهم من عنوان « اليوميات » أنها بنت يومها ، بل بنت ساعتها ولحظتها ، ولكنها مجرد مناسبات عارضة للكلام فى موضوع غير عارض ، أو غير موقوت بزمن من الأزمان فى معظم الأحيان »

(جـ ١ ط ٢ ص ٥) .

فاليوميات التى يقصدها هى اليوميات التى يكتبها مرة واحدة كل أسبوع ويشاركه فى تحرير صفحتها آخرون على مدار الأسبوع .

ويبين حلمى سلام فى كتابه « يوميات كاتب » قيمة اليوميات ، فيقول : ولئن كانت كل يومية من يوميات أى كاتب تشير إلى جزء من اهتماماته ، وتدل على لمحة من ملامحه ، فلا شك أن تجميع هذه اليوميات كلها فى كتاب واحد إنما هو شيء أقرب ما يكون إلى تجميع أجزاء صورة متناثرة بعضها إلى بعض ووضعها فى إطار واحد » .

وأكبر مجموعة من الكتب جمعت فيها يوميات للكاتب الروائى « يوسف السباعى » التى تبدأ بيوم **١٢** أبريل **١٩٥٧** فى « أيام تمر » و« من حياتى » **١٩٦١** م ، و« أيام مشرقة » **١٩٦١** م ، و« أيام وذكريات » و« أيام من عمرى » **١٩٦٢** م ، وكلها يغلب عليها طابع المقالة الشخصية والخواطر الخفيفة المرحة الفكاهية .

***

الرسائل

ويطلق الأوربيون على الأدب كلمة LETTRES أى الرسائل . وقد تقترن بصفة الجمال فيقال : Lettres Delles أى الرسائل الجميلة .

ويبدو أن الآثار الأدبية وخاصة فى النثر ، كانت مقصورة على الرسائل . فكان قدامى الأدباء يتراسلون وتحمل رسائلهم أفكاراً علمية وانفعالات وجدانية ، وكثيراً من العادات والتقاليد (١) .

وترتبط الرسائل بفن السيرة الذاتية ، وبعض الرسائل الطويلة تمثل يوميات معينة ، ومختارة فى حياة كاتبها ، ومن الممكن أن يتوفر لها خصائص اليوميات الصادقة كما فى أعمال « بلزاك » التى عنوانها « الغريب » . وأحياناً تكون الرسائل سجلاً لأحداث كما فى رسائل « هوداس » و« البول » .

وقد تجئ الرسائل تعبيراً عن اتجاه كاتبها نحو ما يدور فى مجتمعه من أمور لا يرضى عنها ،

(١) الدكتور ابراهيم سلامة ـ تيارات أدبية بين الشرق والغرب . القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥١ . ص ١١

وكفاحه لإرساء قيم أخلاقية كما فى رسائل لورد « شيشترفيلد » .

والرسائل التى تتبادل بين الأصدقاء والمحبين تكتب عادة تحت تأثير الانفعالات العاطفية دون مواربة للأحاسيس الجياشة العنيفة ، وتنطوى على قدر كبير من كشف حقائق النفس ودخائلها الوجدانية . إذ أن أغلب هذه الرسائل لم يقصد من كتابتها النشر ، أو اطلاع الآخرين عليها ، فتحمل سمة من الصراحة نادرة ، وتعطى للقارئ أدباً له مذاق خاص ، وأحب الرسائل لدى القراء ما كانت صادرة بتلقائية من القلب صادقة التعبير .

وعرف الأدب العربى فن الرسائل قديماً ، ثم تطور فى المضمون والأسلوب ، وإن ظل يحمل سماته الأصيلة ، وهى الإخوانيات أو البحث فى موضوع فكرى ، أو قضية سياسية أو فى الحب والوجدان .

ومن الرسائل العربية ذات القيمة رسائل أحمد تيمور إلى « أنستاس الكرملى » ، ورسائل الرافعى إلى محمود أبو رية ، ورسائل رشيد رضا وشكيب أرسلان ، والشيخ الإمام محمد عبده .

وقد يعمد بعض الكُتاب إلى استخدام ألوان من السير الذاتية فى قصص يترجمون فيها لحياتهم ، ويلعب الخيال فيها دوراً كبيراً كما فعل « تشارلس ديكنز » فى « ديفيد كوبر فيلد » ، أو يتناول بعض جوانب حياتهم ، ويجعلونها ركائز أساسية فى قصصهم كما عند « سومرست موم » فى معظم رواياته .

ونجد هذا الاتجاه واضحاً فى « الحى اللاتينى » لسهيل ادريس ، وثلاثية (بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية) لنجيب محفوظ .

* * *

الاعترافات الذاتية بين المعوقات والمبررات

ظل الأدب العربى الحديث زمناً يفتقد الكُتاب الذين يترجمون لذواتهم ، ويعرضون حياتهم ، ويفضون بأسرار نفوسهم ، خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ، دون تحرج أو مواربة .

ويرجع ذلك إلى عوامل متداخلة سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية وثقافية .

فالاستعمار بأشكاله المتعددة اتخذ الشرق العربى مسرحاً له ، فى ظل حكومات قاومت حق الشعب فى دستور ديموقراطى يعطى المواطن الثقة بنفسه ، وانعكس ذلك على شخصية الأدباء .

والحاكم متعال ، يرى أنه صاحب الحق فى الحديث عن ذاته ، وحديث الآخرين عنه .

والارستقراطية والطبقية لا ترحبان بمواطن عادى من العامة يفضى بدخيلة نفسه ، فضاعف ذلك من شك الناس بعضهم فى بعض ، وعزلتهم الاجتماعية والنفسية والفكرية .

والعلماء والأدباء إذا تكلموا عن أنفسهم أثاروا الريبة ، بدعوى أنهم يخفون نوايا ضد مصلحة الحاكم .

وسادت السرية جو الأسرة ، فأسرار حول الممتلكات والأقوات والمدخرات . وصار الإنسان يخشى أن ينفلت لسانه بما يشى بطواياه .

وفى التراث العربى ما ينصحه بكتمان سره من الحكم والأمثال . مثل : لا تظهر كوامن صدرك بإذاعة سرك ، فيمكر بك حاسدك ، ويظهر عليك معاندك . من حصن سره فله من

تحصينه إياه خلتان ، إما الظفر بما يريد ، وإما السلامة من العيب (١) .

والشعب أحوجته المظالم والدسيسة والحيلة والحذر ، وربما كان ذلك سبباً من أسباب الولع بالكناية فى الأدب العربى ، والإفراط فى التورية والجناسات اللفظية التى تكفل اللباقة فى التعبير والإشارة والتلميح بدلاً من الإفصاح والتصريح .

وصار التصنع والمداجاة ، وإخفاء حقائق النفوس ، من الأمور التى يكاد يمارسها الإنسان يومياً .

يقول محمود تيمور : « نحن الشرقيين نحيا فى دنيانا هذه ، وعلى أخلاقنا وسلوكنا قناع غليظ .. قلما نقول ما نعتقد ، وقلما نصارح بما نجد ، وقلما نعبر عما تطويه السرائر .. كلنا متستر يداجى ويوارب » .

وعلى الرغم من هذه المعوقات التى حالت دون ازدهار أدب السيرة الذاتية بما ينطوى عليه من اعترافات صريحة ، بالنسبة لما عداه من فنون الأدب العربى الأخرى ، فإنه نتيجة لتأثير الأدب الغربى فى الأدب العربى الحديث ، راح بعض الأدباء ينهجون نهج كُتاب الاعترافات والمذكرات واليوميات ، فى ترجمتهم لحياتهم ، إلا أنهم كانوا يرون فى طبيعة هذا الفن الأدبى ذاته كمون معوقات وحواجز عرض لها بعض الذين سجلوا سيرهم الذاتية .

إذ ليس من اليسير على الكاتب أن ينقل الحقيقة كلها عن حياته لأنه سيكون العارض والمعروض ، والواصف والموصوف ؛ والنفس إما أن تغلو فى تقدير ذاتها ، أو يحملها حب العدالة على تهوين شأنها ، وإما أن تقف من نفسها موقف القاضى الموضوعى ، والحكم النزيه ، وذلك مطلب عزيز التحقيق .

ويرى أحمد أمين : « ان للنفس أعماقاً كأعماق البحار ، وغموضاً كغموض الليل ، والوعى واللا وعى ، والعقل الباطن والظاهر .. كل هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال ، وفهمها أقرب إلى المحال .. والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة ، والشىء إذا زاد قربه صعبت رؤيته » .

ويؤكد هذه المعاني « سلامة موسى » بقوله : « يعيب أذكى النـاس أن يحلل نفســه ،

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن الويرى ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب . القاهرة ، دار الكتب المصرية . ص ٨٤ وما بعدها .

ويعرض لتاريخه ، ويعيب السيرة الذاتية أن كاتبها لا يحسن التحليل لنفسه لأن كثيراً مما يراه غيره فيه يعمى هو ، لذاتيته ، عنه » .

أما « ميخائيل نعيمة » فيقرر فى سيرته الذاتية ، « سبعون » ، أن « حكاية ساعة واحدة من ساعات العمر أمر صعب ، فكيف يمكن حكاية « سبعون » سنة ؟! » .

ولذا كان أغلب الأدباء العرب إذا أقدموا على تدوين سيرتهم الذاتية ، وتضمينها اعترافاتهم الشخصية ، بدأوها بسرد مبرراتها والزوايا التى يتناولون منها حياتهم .

يقول « عبد الرحمن شكرى » فى « اعترافاته » (١٩٠٩ م) : « رأيت أن أجمع هذه المذكرات وأن أنشرها لأن فى نشرها عبرة كبيرة لمن يعتبر ، وسيرى كثير من القراء نفوسهم مكبرة مرسومة فى هذه الصحائف » (ص ٤) .

ويقول الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من « الأيام » (١٩٢٦ م) موجهاً حديثه إلى ابنته : « عرفت أباك فى طور من أطوار حياته استطيع أن أحدثك عنه .. وكم أحب أن تعرفيه كما عرفته ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق . » (ص ١٤٧) .

وفى ختام الجزء الثانى من « الأيام » (١٩٣٩ م) يوجه حديثه إلى ابنه فيقول : « دعنى أهد اليك هذا الحديث .. لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك .. وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، وطالما وجد فى جدك وهزلك لذة لا تعدلها لذة » (ص ١٨٣) .

أما « سلامة موسى » فى « تربية سلامة موسى » (١٩٤٧ م) فيرى أننا نحب أن نتحدث عن أنفسنا ، وكل حياة لا تخلو من مغزى ، ويمضى ليشرح للقارئ كيف ربى نفسه أو كيف ربته الحوادث كما يعبر .

و« أحمد أمين » فى كتابه « حياتى » (١٩٥٠ م) يقرر أنه يؤرخ لحياته لعلها تصور جانباً من جوانب جيله ، وتصف نمطاً من أنماط حياتهم ، وتفيد قارئاً ومؤرخاً ، لأنه يعنى بوصف ما حوله . كما يرى « الدكتور حسين فوزى » أنه بعرضه سيرته فى « سندباد فى رحلة الحياة » (١٩٦٨ م) يبين الأدوار التى مر بها كواحد من أبناء جيله ، وكيف طورت تفكيره ، ومصادر ثقافته ، ويلقى الضوء على حياة جيله فى سن المراهقة وما بعدها ، وعلاقته بالثقافة الأدبية ، وتصوير الظروف التى نشأ فيها جيله .

أما « ميخائيل نعيمة » ، فيكتب سيرته الذاتية « سبعون » (١٩٦٢ م) استجابة لفضول قرائه ، ليعرفوا التربة التى نبتت فيها أفكاره ، والأجواء التى تبلورت فيها ، والأسس التى قامت عليها ، والعقبات التى ذللها . ويضيف قوله : « واللذة التى يلاقيها الإنسان إذا هو تعرى أمام الناس من جميع أسراره وأوزاره .

و« توفيق الحكيم » فى سيرته « سجن العمر » (١٩٦٧ م) يرى أنها صفحات « ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة .. إنها تعليل وتفسير لحياة » .

ولا مشاحة أن هذه المبررات مهما تنوعت إلا أنها تعين القارئ أن يتعرف على حياة الأديب وترسم صورته وسط الظروف التى شق طريقه فيها ، حتى أمكنه أن يحقق ذاته فى المجتمع .

ولا نكران أنه قد كان لثورة عام ١٩١٩ م أثرها الاجتماعى والنفسى والفكرى على المجتمع المصرى ، والساحة العربية ، وقد مست بصفة خاصة أعماق الشخصية المصرية ، فأحس المواطن بحريته ، وفرديته ، وانعكس ذلك على الإنتاج الأدبى ، فكُتبت الأعمال التى تركز حول الأديب وحياته واعترافاته ، بدافع من الشعور بالاستقلال الذاتى والحرية الفردية . فظهر فنّ التراجم واليوميات الذاتية [١]

وقد كان الدافع إلى ذلك إحساساً بالمرارة ، ورغبة في الانطواء والانسحاب إلى الذات لتأمل الحياة من خلالها .

ومن المحقق أن أدب السيرة الذاتية بما يعرض من خفايا حياة الأدباء الشخصية فى صراحة تزيل الحواجز بينهم وبين القراء ، وتصور آلامهم وآمالهم ، وأسرار ومكنونات صدورهم ، وما مر بهم من حوادث ومواقف تعبر عن المعالم الأساسية فى حياتهم وتحيط بسماتهم الجسمية والعقلية والمزاجية والخلقية ، وما هو فطرى ومكسوب فى شخصيتهم : لم يظهر دفعة واحدة فى الأدب العربى الحديث . إذ كما أن الفرد الواقع تحت تأثير الموقف التحليلى النفسى قد يقاوم الإفضاء بكل ذات نفسه فيكسو الحقائق تلميحات تدل على خفايا اللا شعور ، وقد يسرف فى المقاومة فيقنع الحقائق رموزاً يحاول أن يبعد بها عن الموضوع الأصلى فلا يظهر إلا ما يعجز عن كبحه

---

(١) الدكتور أحمد هيكل ـ الأدب القصصى والمسرحى فى مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ . ص ١٦ .

وتسلله فى الفلتات العابرة ، أو يتخذ الحيل التى لا تسمح بالإفضاء إلا بقدر ضئيل ثم تأتى مرحلة التجاوز عن ذلك إلى التصريح دون مقاومة أو حيلة ، هكذا حدث فى فنون السيرة الذاتية ،[1] وما ينطبق على موقف الأدباء فى مطلع القرن العشرين حيث ظهرت السير الذاتية فى سلسلة مقالات مثل « اعترافات » عبد الرحمن شكرى فى « الجريدة » و« الأيام » لطه حسين فى « الهلال » ، و«تربية سلامة موسى » فى « الهلال » و« المقتطف » و« العصور » و« حياتى » لأحمد أمين فى « الرسالة » و« الثقافة » ، حتى لا يفاجأ القارئ بحديث الأديب عن نفسه فى كتاب يصدر حول ذاته ، كما أن شخصية الأديب كانت تتوارى تحت رمز أو ضمير .

وأخذ بعض الأدباء يكتبون المقالة الشخصية أو يستلهمون من حياتهم ما يتيح لهم الاقتراب من حقائقها بقدر ما يشاءون أو يطمسون معالم بعض الشخصيات التى عرفوها خشية الحرج ، فظهرت مقالات وروايات التجربة الذاتية .

ومن ثم سنعرض للأدباء الذين لهم انتاجهم فى فنون السيرة الذاتية ، إلى جانب سيرتهم الذاتية الصريحة ، ثم الذين لم يخصوا حياتهم بمؤلفات ، ولكنهم عرضوا لبعض جوانب حياتهم فى مقالات واستلهموها فى روايات لأدبائنا العرب ، وكان كل هذا النتاج ينطوى على اعترافات شخصية ، ومواجهة ذاتية تتفاوت من أديب لأديب آخر .

***

(١) فرويد ، سيجموند ـ حياتى والتحليل النفسى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ . ص ٤٧ .

اعترافات .. عبد الرحمن شكري

نشر عبد الرحمن شكرى (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨ م) فى صحيفة « الجريدة » ما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٣ م سلسلة مقالات عرض فيها لحياة إنسان فى مختلف أطواره ، ورمز إليه بـ « م . ن » ، ثم جمعها فى كتاب طبعه فى الاسكندرية عام ١٩١٦ م وأسماه « كتاب الاعترافات .. وهو قصة نفس » .

وأجمع النقاد على أنها اعترافاته ، حيث لا يمارى من درس دواوينه الشعرية ، ومؤلفاته الأدبية ، وعرفه عن قرب أنها له .

وتتميز بأنه اهتم باستبطان ذاته ، واحتفاله بكشف طواياه ، وخبايا نفسه ، أكثر من عرضه للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى فى ظلها تشكلت شخصيته وتأثرت .

وتكاد الاعترافات ـ أو المذكرات كما يطلق عليها أحياناً ـ أن تكون مجموعة آراء وأفكار تعبر عن رأى صاحبها فى الحياة والناس .

فيتأمل الطفولة والمراهقة والشباب والعقيدة والفنون والإحساس والحياة والغرور وغير ذلك ، بأسلوب يميل إلى التعميم والتجريد . فهو إذ يتحدث عن طفولته ، يتناول الطفولة عموماً ، فيقول : « إن المرء إذا جعل يتذكر أيام طفولته أحس لذة مثل الرجل عند رؤيته ابنه الصغير ، فإننا ننظر فى أعماق السنين إلى ذلك الطفل الذى كناه فى طفولتنا فنحنو عليه ... ولو تفهم المرء تقلبه فى أطوار عمره لرأى أنه ينتقل من حياة إلى حياة ، وأنه يخلع كل يوم حياة ويلبس أخرى » (ص ٧) .

ويرى أن طهارة الأطفال مصدرها عجز عن إتيان الشر ، ففيهم الجشع واللؤم والقسوة ، فكأنهم أشرار « بالقوة » وليسوا « بالفعل » ، وإلى مثل هذا يذهب « القديس أو غسطين » فى « اعترافاته » عندما يتكلم عن « براءة الطفل فى المهد » فيرى فيهم جشعاً وغيره ، وعناداً ، وبراءتهم مظهر لضعفهم ونقص فى أعضائهم .

فإذا انتقل إلى الشباب ، وكان هذا رأيه فى الأطفال رأى فيهم كثرة سوء الظن ، وضعف العزيمة ، وغلبة الأحلام والأطماع والأمانى وتهيج العواطف ، وقلة صبرهم . أما عن شبابه هو نفسه فقد كان « شاباً يحب القراءة والتفكير ، وكانت تلوح فى عينيه علامات السأم والحزن والتفكير ، وقد تقلصت شفته السفلى تقلص السخرية ... وفى بعض الأحيان كان وجهه مثل السماء التى تراكمت سحائبها وتلبدت غيومها » (ص ٦)

فالكاتب يعيش حياة حزينة سوداء ، يغلب عليها اليأس وعدم الثقة بالآخرين .

والحب فى شبابه طيش مثل « نزوات التيوس والعصافير » وفى أحكامه التقريرية العامة عن الشباب والحب ، لا يقدم للقارئ تجربة شخصية يستخرج منها دلالتها . ولكنه لا يغفل الإشارة إلى هزة الفرحة التى غمرته حينما قرأ أول قصيدة له تنشر ويعبر عن ذلك بقوله : « صرت أقرأ القصيدة مرات عديدة ، ... كان يخيل إلى أنها أحدثت أثراً باقياً فى نفوس الناس ، وأنها أصلحت من عواطفهم وقومتها ، وأنها ستحدث تغييراً كبيراً فى سنن الوجود وأنظمته » (ص ١٨) .

فهو بين اليأس والأمل يعيش حياته لأنه فيما يرى نفسه « خلقت كثير الأمانى والأطماع . ومن أجل ذلك كنت أيضاً كثير اليأس لأن من سما به الأمل إلى سمائه لابد أن ينزل به اليأس إلى حضيضه ... ورياح الحوادث قد أطفأت نور هذه الأطماع فلا أستضئ الآن إلا بنار اليأس » (ص ١٦) .

فالأديب عبد الرحمن شكرى ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم الذى يغلبه ، ومن الشعور بتضخم الذات ، إلى معاناة الإحساس بالدونية ، فيؤدى به إلى العزلة والانطواء وسوء الظن بالناس ، ويعترف : « إنى أسئ الظن بكل شئ سواء الحميد والذميم ، فلا غرو إذا رأيت فى الضياء ظلاماً » .

وفى مراهقته يقترن تطور الشعور الدينــى عنـده بإحساســه بالجنس وانتقالـه من سماع القصص الخرافية إلى كثرة التعبد والصلاة والقراءة الدينية وزيارة الأولياء ؛ ويرى « موترام » ان الإنسان عرضة فى مراهقته لمعاناة بعض التجارب الصوفية .[١] وتستمر للشهوة فى نفسه مكانها مع الرياضة والمجاهدة الروحية ، ولا يتردد عبد الرحمن شكرى فى الاعتراف بأنه « كانت كثرة مواقعة الشهوة بقدر شدة التعبد ، فلم يمنعنى تخويف تلك الكتب وإرهابها من اللذات » (قارن اقتران الدين بالجنس فى مراهقة د . زكى نجيب محمود « قصـة نفس » ص ١٠٧) .

وتؤدى به تأملاته إلى الشك الذى يجعله يفكر طويلاً فى علة الوجود وغايته ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، حتى وجد الملاذ فى « روح الوجود » فينص على أنه « علمنى الإيمان أن للوجود روحاً كبيرة لها حياة وشخصية ، وأن هذه الروح توحى إلى أرواح الأفراد بما تريد ولها من المقادير جنود .. »

والإنسان مجبر فى هذه الحياة ، وليس مخيراً لأنه « مقيد بقيود الضرورة ومحدود بحـدود القدر » .

ثم يكشف عن سمات خلقه فهو يضيق بالنفاق ، ويسخط على الرياء ، ويعزو عدم نجاحه فى الحياة ، وتحقيقه ما تصبو إليه نفسه ، إلى قلة حيلته فى اللجوء إلى وسائل تأباها مثاليته وقيمه « لأن النجاح فى الحياة يستلـزم طبائـع لا يسـتقيم إلا بهـا ، .. ليس عنـدى هذه الطبائع .. » (ص ٤٤) .

ثم يضع يده على خلة فى نفسه حالت بينه وبين مبتغاه من الحياة ، وهى « الحياء » ، ويقول : « إن الحياء من أكبر أسباب الفشل فى الحياة ، وهذا الحياء يعتادنى إذا جالسنى أو حادثنى من لا أعرفه ... ومن أجل هذا صرت أستر هذا الحياء ، بالكبر والاحتجاز والتصلب واعتزال الناس » .

أما السعادة .. فإذا سأل نفسه عنها حللها بعباراته وتأملاته ورأى أن سعادة الإنسـان

---

(١) مترام ، ف . هـ ـ الأساس الجسمانى للشخصية . تأليف ف . هـ . مترام وترجمة عبد الحافظ حلمى محمد .القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط . ١٩٦٦ .

وشقاءه مرهونان بالوراثة والبيئة والتربية وهى رأس مال السعيد .

وبعض الناس تسعدهم هذه العوامل حتى انهم لو تطلبوا الشقاء لما وجدو إليه سبيلاً ... وفى الناس من تشقيهم هذه العوامل حتى يأنسوا إلى الشقاء . (ص ٤٥) .

ومن البين أن عبد الرحمن شكرى فى اعترافاته ابتعد عن ذكر التفاصيل ، وتجنب الإشارة إلى خبراته وتجاربه الشخصية التى عاناها ، ومال إلى استخلاص آراء فى الحياة والناس ، وصياغتها فى قالب حكم ، وتبرير سلوكه فى المواقف التى واجهته .

ويحاول حتى آخر كلماته فى « اعترافاته » أن يزيل من ذهن القارئ أنها اعترافاته هو شخصياً . وكأنه يخشى ألا توافق بعض آرائه التى اعترف بها القراء ، فيقول : « إنى أخالف صديقى م . ن فى بعض آرائه كما أوافقه فى بعضها فقد وجدته فى هذه المذكرات ينسب إلى نفسه صفاتٍ مذمومة قد كانت خافية علينا » .

فهذه المذكرات ليست اعترافات عريانة من ثوب الخيال .. لم يرد أن يكون هذا الاعتراف صورة لنفسه (ص ١١٣) .

ومع ذلك فهو إذ يضمنها أشعاره لا ينسى أن ينبه القارئ إلى الرجوع إلى قصيدة له فى الجزء الثالث من ديوانه « مشترى الأحلام » .

وفضله الرائد فى فن السيرة الذاتية أنه عرف سمات هذا الفن كما تطورت فى الأدب الغربى ، وتفطن إلى ما يعتمل فى أعماق النفس ، وكشف عن قيمه التى اعتنقها ، وصراعه مع المجتمع ، فتميزت سيرته الذاتية بالريادة والأصالة وصدق الاعترافات .

* * *

أيام .. الدكتور طه حسين

يبدأ الدكتور طه حسين نشر الجزء الأول من « الأيام » بمجلة « الهلال » فى ديسمبر عام ١٩٢٦ م ، فشد اهتمام القراء إلى سيرته الذاتية ، وما تضمنته من اعترافات عن وقائع حياته . ثم نشر الجزء الثانى فى أغسطس عام ١٩٣٩ م من « الأيام » . وقد أملاهما فى فرنسا ، الجزء الأول فى ثمانية أيام والثانى فى تسعة أيام . وبهذين الجزءين احتل أدب السيرة الذاتية مكانة بين فنون الأدب العربى الحديث .

ثم كتب « لآخر ساعة » عام ١٩٥٤ م ، عشرين فصلاً لفترة تمتد من ديسمبر عام ١٩٠٩ م إلى فبراير ١٩٦٢ م . وجمعها فى كتاب « مذكرات طه حسين » ولا يشك من يقرأه أنه تتمة للأيام ، لأنها تصف حياته فى الجامعة المصرية ومونبلييه وباريس . وأحداثها تعقب « الأيام » التى عرض فيها مرحلة من عمره تكاد لا تتجاوز العشرين عاماً .

إذ يبدأ الجزء الأول بطفولته المبكرة حتى الثالثة عشرة من عمره ، ثم التحاقه بالأزهر إلى ما قبل الحصول على شهادة العالمية بسنتين حتى جمعه بين الدراسة فى الأزهر والجامعة المصرية فى نهاية الجزء الثانى من « الأيام » .

واستطاع د . طه حسين أن يسجل بصدق وصراحة ما صادفه من أحداث شكلت حياته ، وأبان عن قدرة بيانية وبلاغية فى وصف البيئة التى عاشها .

وليست البيئة التى يعرضها مقصورة على المعنى الجغرافى والسكانى ، ولكنها البيئة التى يقول عنها « آن انستازى » [1] « انها بمثابة جميع المؤثرات التى يتلقاها الفرد منذ حياته

(١) أنستازى ، آن وآخرون ـ ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية . جـ ٢ تأليف آن انستازى وآخرين ، وترجمة د . أحمد زكى صالح وآخرين ، إشراف الدكتور يوسف مراد . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ص ٥٢٩ .

الرحمية حتى الممات » .

ويُلاحظ أن هذا المعنى للبيئة معنى « ديناميكى » فمجرد وجود أشياء مادية حول الفرد لا يعنى أنها تدخل فى نطاق بيئته إذا لم يكن لها أثر على خبراته .

ويقول د . طه حسين « إن المراد بها المكان الذى يأوي اليه الإنسان وكل ما يحيط به فيه » .

ومن ثمة تكون لسيرة د . طه حسين الذاتية قيمتها فى كشفها عن المؤثرات البيئية التى دخلت خبرته ، وهو ينقل لنا أثرها فى أعماقه واستجابته لها فى صراحة .

فبعد وصفه بيئته فى القرية ، يعرض بيئته الجديدة فى القاهرة فى ثلاثة أطوار يتخيلها ولا يتحققها من بيته (حى الجمالية ـ حوش قدم) إلى الأزهر ، وفى صحن الأزهر ، وفى غرفة فى بيته (حجرة فى مبنى وكالة نجارة بربع السلحدار) ، ويستجيب لمؤثرات هذه البيئة بما يمكنه من وصفها وفقاً لما تعطيه من تأثير حسى ومعنوى .

وهى تتنوع بين « إحساس بحر خفيف يبلغ صفحة وجهه » ، و« دخان خفيف يداعب خياشيمه » و« إحساس بصوت غريب يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئاً من العجب » و« شعور برطوبة مكان » و« روائح غريبة معقدة » و« طريق لا يستقيم » ، فإذا اتضحت المعالم تبين أنها « قرقرة الشيشة ودخانها » ، و« مكان لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه من ماء » ، وهكذا .

أما القرية التى قدم منها فهى « الكيلو » بالوجه القبلى ، حيث كان فرداً بين إخوة من أبناء أبيه وأشقائه ، يتبين أنهم يصفون ما لا علم له به . فتحقق أنهم يبصرون ما لا يبصر ، بعد أن أصابه الرمد ، وذهب بعينيه ، واستيقن من هذا الفرق حينما كان يأكل بينهم بكلتا يديه فيضحكون ، مما جعله فى مقبل أيامه يكبح شهيته للطعام ويفضل الأكل منفرداً .

ويجد ممن حوله العطف إلا أنه يفاجأ يوم امتحانه للانتساب إلى الأزهر بالممتحن يناديه « أقبل يا أعمى » وعند انصرافه « انصرف يا أعمى فتح الله عليك » .

ولا ينسى يوم أن جادل شيخاً فغضب منه ، وقال له ساخراً : « أسكت يا أعمى ما أنت وذاك » .

وفى قريته عرف سيرة عنترة والظاهر بيبرس والهلاليين والزناتيين ، وأخبار الأنبياء ، والنساك . وما إن بلغ التاسعة حتى كانت لديه حصيلة من المعرفة السمعية ، وأتم حفظ القرآن ، حتى السحر عرفه وحاول أن يمارسه .

ويعرف الحزن طريقه إلى بيت الأسرة بوفاة أخته الصغرى ، وأخ له وهو فى الثامنة عشر من عمره .

وما من أديب عربى عرض سيرته الذاتية إلا وذكر المرض ـ لا سيما الكوليرا الذى يؤدى إلى موت أحد أفراد أسرته ، ثم يغمرهم الحزن البغيض .

وفى القاهرة يعيش طه حسين فى غرفته ، فيحس الغربة ووحشة الوحدة . وكان يزوره زائر أطلق عليه « أبو طرطور » . ولم يكن غير الشيطان الذى يلم به إذا جن الليل واستغرق فى النوم ، فإذا انصرف هذا الزائر ، هم من فراشه ليكون طاهر النفس والجسم بعد الاستحمام . وكان هذا الزائر يستخفى ويظهر إذا صعدت فتاة فوق السطح أو عندما يرتفع صوت النساء فى « الربع » الذى أفاده على فهم كثير من أمور الحياة ، وأسرارها . وعلى هذا النحو لا يتحرج د . طه حسين من الاعتراف بهذه التحولات الفسيولوجية التى تنعكس فى مراهقة الفرد فيما يعتريه من أحلام الجنس .

ويعترف د . طه حسين بفضل « حى الربع » عليه ، فيقول عنه : « على هذا الربع أقبل الصبى ، وفى هذه البيئة عاش . وأكبر الظن أن ما اكتسبه فيهما من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد » .

وحينما يعود إلى قريته « الكيلو » ينكر كثيراً مما يألفه أهلها من الأمور ، ويمارسونه من عادات ، وسخر من كرامات الأولياء ، واعترض على قراءة أبيه لدلائل الخيرات ، ووصفها بأنها عبث لا غناء فيه ، فأغضبه ، ولم يتردد طه حسين فى أن يقف موقفاً موضوعياً من كل ما يدور حوله من أمور حتى لو كان مصدره له قداسته ، ومكانته العاطفية فى قلبه .

ولذا نراه عندما يتم ختم القرآن الكريم أى حفظه ، وصار صاحب حق فى لقب « الشيخ » ، ولكنه لم ينل ما هو حق له فى الجبة والقفطان ، كره أن يدعى به (لقب

الشيخ) ، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصهان الأب والأم من الكذب والعبث والخداع . يقرر ذلك دون مواربة ، ويعترف بهذه المشاعر حتى لو كانت نحو والديه .

وإذا كان طه حسين فى هذه المرحلة المبكرة من عمره يقف من كل ما لا يرضى عنه موقفاً عنيفاً صاخباً ساخراً ، فلا دهشة أن تحفل حياته المقبلة بالمواقف الاحتجاجية فى شجاعة وجرأة إزاء كل ما يأباه عقله ، ويرفض قبوله منطقه ، ويجفو عنه ذوقه ، ويتحمل فى سبيل ذلك المشاق الكثيرة ، ويقتحم العقبات التى يحدثنا عنها معترفاً فى « مذكراته » ، ولا يفت ذلك فى عضده ، أو يضعف عزيمته ، فينتقل من نجاح إلى نجاح يمكنه من تبوأ المكانة فى عالم الفكر ، ويصير رائداً فى صراحته واعترافاته التى عرضها فى سيرته الذاتية ومست عميق أعماق خصائصه النفسية وتحولاته الاجتماعية ، والفكر المتأثر بكونه ضريراً يصارع انحرافات المبصرين كما تصورها من وجهة نظره .

وفى بعض روايات د . طه حسين القصصية معالم من البيئة الاجتماعية التى عايش أحداثها ، وقابل شخوصها ، ففى رواية « أديب » (١٩٣٠) يروى جانباً من حياته مع صديق صاحبه وهما يدرسان فى الجامعة ، ثم سفره إلى فرنسا طلباً للعلم . ونتعرف من تحليل د . طه حسين لشخصية الصديق على كثير من آرائه فى مجتمع ذلك الحين ، وتطوره الفكرى فى مرحلة مبكرة من حياته فهو : « يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ... والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلِمَ لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التى يتكون منها تاريخه الفردى الخاص ؟ ... وما أكثر ما يدعوه جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليها من الأحداث » (ص ٥) .

فقصة أديب هى فى الواقع حياة المؤلف ذاته فى مرحلة منها حيث « خلع » فيها حياته الأدبية فيما رواه عن بطلها .

ورأى بعض نقاد الأديب أن « أديب » وان غلب عليها طابع الرواية التحليلية ، إلا أنه يمكن أن ينظر إليها على أنها نوع روائى آخر ، أو ليس روائياً على الإطلاق . لأن المؤلف اهتم

إلى جانب إيراد حكاية هذا الأديب بعرض صفحات عديدة من حياته هو شخصياً ، وذكرياته الذاتية عن القرية والكُتاب والقاهرة ثم رحلته إلى فرنسا والسربون .

وقد أسرف فى وصف هذه الأمور ، وأعطاها قلمه الكثير من الاهتمام ، بل أوشك أن يخصص لها بعض الفصول كالفصل الخامس الذى يكاد أن يكون فصلاً بالتمام من كتاب « الأيام » ، حتى ليخيل للقارئ أحياناً أن هذا الأديب الذى جعل د . طه حسين الرواية محوراً له ، ما هو إلا مشجب يعلق عليه د . طه حسين هذه الصفحات من سيرة حياته ، ويتخذه قناعاً ليقدم للقارئ مزيداً من اعترافاته .

وقد صار هذا العمل على هذا النحو أقرب إلى لون رواية السيرة الذاتية ، وقد أوردته دار النشر التى طبعته فى باب فن التراجم ، ولم تورده فى باب القصص .(١)

وما يدور من مناقشات فى هذه الرواية يسيطر عليه المؤلف سيطرة كاملة ، وأسلوب الرسائل التى يرسلها الأديب لرفيقه وزميله هى رسائل لا تخلو مما يكشف طبيعة مرسلها ، وهى مدموغة بطابع شخصية المؤلف وأسلوبه .

وتكتسى الرواية بأسلوب د . طه حسين المعروف بخصائصه التى تجرى على كل لسان ، بل هو يجرى على كل قلم فيها . فالأحاديث والمحاورات والرسائل كلها بلغة د . طه حسين حتى ليخيل إلى القارئ أنه لا وجود لصوت غير صوته ولا لقلم غير قلمه . وفيما صدر للدكتور طه حسين بعد ذلك من روايات ، وإن بعد عن طابع السيرة الذاتية إلا أنه يصور بعض جوانب الحياة التى تأثر بها .

ففى « شجرة البؤس » يعرض « صورة للحياة فى إقليم مصرى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن نقلتها من صدرى إلى القرطاس (ص ٢) .

وفى خضم هذه الحياة عاش أشخاص عرفهم ، وقدمهم تارة فى بعض أعماله وكانوا فيها قريبين من شخصياتها الرئيسية أو المحورية ، ولكنهم تارة أخرى يكونون شخصيات محورية وما عداهم ثانوية . وبقدر ما نقترب منهم نقترب من نفس المؤلف ، ويقول « سومرست موم »

---

(١) الدكتور عبد المحسن طه بدر ـ تطور الرواية العربية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ص ٣١٣ .

إن رسم شخوص الروايات عن الأشخاص الحقيقيين فى الحياة أمر شائع . منذ عهود الأدب الأولى ، والمؤلفون يتخذون شخوصهم الروائية من الواقع الحى .

وقد كتب « ستذال » فى بعض أصول رواياته الخطية أسماء الأشخاص الذين أوحوا إليه بشخصياته الروائية ، وقد قرر « ترجنيف » أنه لم يكن فى وسعه رسم أية شخصية روائية ما لم يفكر أولاً فى شخصية إنسان حى .

وعلى هذا النحو كانت اعترافات د . طه حسين تحاول دوماً أن تجد منفذاً للجهر والإفصاح والتعبير فى شتى ألوان السير الذاتية .

* * *

قصة حياة .. ابراهيم عبد القادر المازني

عُرف عنْ الكاتب الأديب « ابراهيم عبد القادر المازنى » (١٨٨٩ ـ ١٩٤٩ م) ولعـه الشديد بالحديث عن نفسه ، ووجد فى كتابة القصة القصيرة والطويلة والمقال مجالاً ليعرض ما يميل إلى عرضه عن شخصيته ، ويستلهم أحداث حياته لينسج حولها أقاصيصه .

ومن مجموعة قصصه القصيرة ، وروايته ، وبعض مقالاته الساخرة يمكن أن نقف على مقومات شخصيته ، والبيئة التى نشأ فيها ، وانعكاس المجتمع بقيمه وتطوراته على نفسه ، وموقفه من الأمور التى كانت تقع له .

ففى مقالات « المازنى » التى بدأ يكتبها منذ صدر شبابه حتى وفاته ذكريات طفولته ، وصباه ، وشبابه . وتصوير للحياة المصرية بتقاليدها وعاداتها وأوهامهـا وخيالاتهـا وأمثالهـا وتفاؤلها وتشاؤمها كما عاشها .

وكذلك يقدم تجارب حياته اليومية فى قصصه التى جمعها بعد نشرها فى الصحف فى كتب بعضها جمعت بين المقالة والقصة مثل كتابه « صنـدوق الـدنيا » (١٩٢٩ م) و« خيوط العنكبوت » و« ع الماشى » أو رواية مثـل « ابـراهيم الكاتـب » (١٩٣٢ م) و« ابـراهيم الثانى » (١٩٤٣ م) ، أو الأقصوصة كما فى « فى الطريق » .

فيروى عن طفولته أنه : « لست أذكر أنى هممت مرة باللعب إلا زجرنى عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدى إلى شئ إلا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضي علىّ

به ، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم ، فأنا إذا لعبت « شقى » وإذا سكنت فلا شك أنى مريض » .

فيصور « المازنى » نوع التربية التى نشأ فى ظلها ، والكبت الذى عاناه فى طفولته ، والقمع الذى قاساه من الكبار . وهى طفولة لا تخلو من المنغصات والمكدرات المادية ، لا سيما وقد توفى والده وتركه تحت رعاية أخ أكبر منه لم يكن شقيقه : « وقد شاء أبى أن يعجل بالانتقال إلى تلك الدار الآخرة قبل أن أبلغ السن التى أستطيع فيها أن أنازل أخى الأكبر ـ رحمه الله أيضا ـ وأن أمنعه أن يبدد مالنا .. » ..

فأدرك « المازنى » مبكراً قيمة المال ويقول : « الفقر فى المال فقر فى كل شئ ، كما عرفت فى طفولتى » .

وكان لأمه أثرها فى حياته بعد وفاة أبيه على نحو يصفه بنصه : « صارت أمى هى الأب والأم ، ثم صارت على الأيام هى الصديق والروح والملهم » .

وتكاد مقالات « صندوق الدنيا » أن تكون ترجمة ذاتية لطفولته ، فعنوانها مستمد من تلك اللعبة التى كان يشاهدها فى طفولته ، وعناوين المقالات مدارها المرحلة المبكرة من حياته مثل : « من ذكريات الصبا » ، « الحب الأول » و« الطفولة العزيزة » .

وبعد أن يجتاز هذا الطور تكون له تجاربه فى رحلة الحياة ، فيحدثنا عن تواضعه أو تمرده ، فيقول : « ذوو الألقاب عندى منبوذون ، أعنى أنى أنفر منهم ، وأكره مجالسهم ، وأتقى مخالطتهم ، وأوثر عليهم البسطاء الفقراء بل حتى الجهلاء والأميين . وأرى لى عطفاً عليهم وحباً لهم وفهماً » .

ويعترف بأنه يميل للانتقام ممن يسيئون إليه فيقول : « أنا أمرؤ فى طبعه الانتقام لا يمنعنى من ذلك جمال الصبر وطول الأناة » .

ولا يوارى إحساسه بالخجل وسط الجماعة فيقول : « ليس أبغض إلىّ ولا أثقل على نفسى من أن أرانى فى حشد كبير من الناس .. ولا أعرف سبباً لهذا النفور ، ولكننى أحس ـ إذا جالست قوماً فيهم من لا أعرف ـ كأن يداً تأخذ بمخنقى .. » .

(قارن فى هذا الإحساس اعترافات عبد الرحمن شكرى)

وفى « إبراهيم الكاتب » و« ابراهيم الثانى » الذى أجمع الرأى على أنه « ابراهيم المازنى » نفسه . يحدثنا عن كثير من صفاته ومقوماته النفسية فيقول : « كان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها ، ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والتقحم على الناس » .

وكان « المازنى » فى ركيزة طبعه الجاد الصارم . وإن كان قد عود نفسه طلب الراحة ، وأن يأخذ الأمور من مآخذها السهلة ، القريبة ، وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها المشرقة الوضاءة من غير أن تغيب عنه نواحيها الحالكة الكالحة .

و« ابراهيم الكاتب » رواية تقدم تجربة عاطفية للكاتب نفسه ، اهتم فيها بالدرجة الأولى أن يترجم لجانب من جوانب حياته الوجدانية ، ويعرض السمات النفسية والجسمية التى عرف بها البطل والتى هى بذاتها سمات المؤلف ، وإن حاول أن يفرق بينه وبين البطل بذكر الصفات التى توهم بالمغايرة بين هذا وذاك .

فليس ما ذكر « المازنى » من صفات لبطله زاعماً أنها مغايرة لصفاته هو ، الا جانباً من جانبى شخصية « المازنى » فى باطنها وظاهرها . إذ يعود بعد ذكر الصفات الموهمة بالمغايرة ، ويذكر تلك الصفات بما يدانيها من طبيعته هو .

فمثلاً بعد أن يذكر أن بطله مغرم بالتفلسف ، على حين يعتبر ذلك رزءا وأن بطله متكبر ، وأنه سمح متواضع ، يعود فيذكر فى « ابراهيم الثانى » أنه لم يكن قد بلغ سن التفلسف ، وأنه لم يكن مشوباً بكبرياء . (ص ٢٨) ، وهى نفس الصفات التى سبق أن قررها واعترف بها لنفسه ، والتى كان يعرف بها « المازنى » حقيقة .

ولعل أشد الأوصاف دلالة على أن البطل هو المؤلف ذاته أن هذا البطل يحمل نفس اسمه ، ولقبه الحرفى ، كما كان يحمل خصائصه الجسدية من القصر والقماءة على حد تعبير « المازنى » .

وأدى الارتباط الواضح بين المؤلف والبطل إلى تحول الرواية فى كثير من المواقف إلى دفاع عن البطل ، وتبرير سلوكه ، وعرض كثير من الأفكار الخاصة به بطريقة تجعلها مفروضة على الموقف ، أو مقحمة على طبيعة الشخصية .

و«المازنى » كان أكثر صراحة من معاصريه فى عرضه لعلاقته بالمرأة ، والتعبير عن قلقه

وضياعه من هذه الزاوية وحدها ، فكان أقدر من سواه على مواجهة وضع المرأة فى المجتمع المصرى .

وقد ضمن ذلك روايته ، مما يظهرنا على جوانب خفية فى حياته ، ولذا كانت روايته متشابهة مع السيرة الذاتية فى النهاية المفتوحة التى يكتبها صاحب السيرة ، ويتوقف عندها ليواصل رحلة الحياة التى يجهل على التحديد نهايتها .

وتبرز رغبة الكاتب فى التخفى وراء أقنعة يدارى بها ما يريد أن يفصح عنه عندما يقول : « لست أحتاج أن أقول إنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية ، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه ... ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغير احتفال ، وهو يعيش للدنيا وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى .. » (ص ٧) .

فهى رواية « سيرة » تعرض « مزاج » و« التفاتات » ، ومحاولته البعد عن بطل روايته إنما هى ، محاولة من محاولات العبث بقارئه يفرق فيها بين صورتين لشخصيته ، صورته الظاهرية كما يحب أن يبدو عليها فى نظر الآخرين ، والثانية التى يمثلها إبراهيم الكاتب من خلال تصوير أعماقه الدفينة .

وفى عام ١٩٦١ م يجمع « المازنى » سلسلة مقالات نشرها فى « آخر ساعة » الأسبوعية ، لتكون سيرته الذاتية تحت عنوان « قصة حياة » ، يقول عنها : « هذه قصة حياتى وإن كان فيها كثير من حوادثها ، إلا أن الأولى أن تعد قصة حياة » (ص ٢) لأن كثيراً من القراء سيرون أنفسهم فيما يقرأونه ، وهو فى هذا يتفق مع الأديب الشاعر « عبد الرحمن شكرى » فى « اعترافاته » إذ يقول : « رأيت أن أجمع هذه المذكرات وأنشرها .. وسيرى كثير من القراء نفوسهم مكبرة مرسومة فى هذه الصحائف ... ذلك أن العوامل الاجتماعية التى تعمل فى نفس الفرد منا تعمل أيضاً فى سائر نفوس الأفراد » (ص ٤) .

و« المازنى » فى سيرته الذاتية هذه يعود إلى ما نشره عن حياته ليركزه ، ويستخلص العبرة من تجارب حياته ، فيعود إلى الحديث عن طفولته ، إذ يفتح عينيه على « دنيا تنتزع الكرة من يديه » فقد توفى والده وذهب ما خلفه من مال ، وعرف منذ التاسعة المسؤولية : « وأحسست أنى فقير وإن كنت مستور الحال » مما دفعه إلى العزلة والانطواء لأن : « الستر لا ينفى الشعور

بالفقر وغضاضته ومضاضته . فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار يحس بمثل حد المرآة على قلبى فيخزه ويقطعه ، فزعت شيئاً فشيئاً إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون مما يستدعى نفقة ، وتكون فيه كلفة » .

وعندما واجه أخاه يسأله أسباب حالتهم المالية السيئة اعترف له بأنه أضاع كل شئ ، فتبدلت نظرته إلى الناس إذ صار كما يعترف : « أخاف الناس وأنظر اليهم شذراً . وإذا كان الأخ الأكبر يجنى على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب » .

وراح يبحث عن الذين فى مستواه المادى ، لأنه يعانى الغربة والمرارة بين من هم أكثر ثراء منه ، فيعترف بذلك فى نصه : « وصرت أشعر أنى غريب إذا ألقت بى المصادفة بين قوم من السراة أو الأثرياء »

ولما كبر وصار فى بحبوحة من العيش خشى أن يسبب له ماضيه « عقدة نفسية » أو « مركب نقص » فكان سبيله للتخلص من ذلك أن « عالجت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا فى حجر النعمة وظل اليسار من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون » (ص ٦) .

فإذا تقدمت به السن والتجربة قال : « أدركت أنى أسرفت على نفسى وعلى الناس . وتبينت أن لا داعى للمرارة ، فقد أفادتنى المحنة صلابة وثقة بالنفس ، وجرأة على الحياة والمغامرة فيها » . فهو لم يستسلم لسوء الظن بالناس كما فعل عبد الرحمن شكرى الذى يكرر الإشارة إلى سوء الظن فى « اعترافاته » حيث يقول : « كان كثير من الناس يسيئون به الظن ، كما كان يسئ بهم الظن » (ص ٦) . فانتهى به الأمر إلى اعترافه بقوله : « إنى أسئ الظن بكل شئ .. ينبغى أن تسئ الظن بنفسك كما تسئ الظن بالناس » (ص ٧١) . فأفضى به هذا الإحساس والاعتقاد إلى أن تنتهى حياته بنظرة تشاؤمية سوداء حجبت عنه التمتع بمباهج الحياة . بينما انتصر « المازنى » على شكه وسوء ظنه بالناس ، واستمتع بمخالطة المجتمع والإقبال على الحياة .

ويشير إلى التقاليد التى نشأ فى ظلها وأثرها « نشأت فى بيت صارم التقاليد ، كان شرما يمكن أن يعاب فى الواحد منا نحن الصبيان أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها » .

ثم يفرد فصولاً يتناول فيها طفولته وذكرياتها ، ويروى « ذكريات مدرسية » بعضها عنه تلميذاً ثم مدرساً ، ويسرد تأملات فى أغوار النفس تكشف عن علاقته بالناس ، وتقلباته الوجدانية ، ونظرات فى الموت .

و« المازنى » قد استطاع أن يستغل تجاربه فى الحياة ومع من عرفهم ، وآلامه وآماله ، ويغوص فى دخيلة ذاته ، ولا يغفل جمحاته ونزواته ، فرسم صورة قلمية ، تفيض بنبض حياته ، فى مسراتها وأحزانها ، وارتفاعها وانخفاضها ، وقوتها وضعفها ، حتى كاد لا يدع جانباً من سيرته إلا عرضه واعترف به ، فسجل دروسها ، وعبرها ، وكشف عن الحق والباطل فيها ، بقدر ما تراءى له ، فاتسم نتاجه فى فن السيرة الذاتية بالخصوبة والتنوع وغزارة الاعترافات الصريحة .

* * *

سجن عمر .. توفيق الحكيم

المصارحة وكشف طوايا النفس ، وجعل الذات محوراً لما ينسج من نتاج أدبى ، أبرز خصائص نتاج توفيق الحكيم (١٩٠٣ م) الذى دبجه فى باكورة أعماله الأدبية .

وكانت محاولاته الأولى فى الكتابة ، تأكيداً لذاته ، وعرضه لما عاناه من جهد ، وما لاقاه من صعوبات ، وما جابهه من عوائق كادت أن تحول بينه وبين تحقيق قدراته ومواهبه ، وهو يشق طريقه فى عالم الفكر والأدب . وكان ذلك مدعاة لأن يبحث عن الأشكال الأدبية المتنوعة التى يتخذها أدباء الغرب قالباً لنقل ما يريدون التعبير عنه من واقع حياتهم .

ولذا يقدم قصة « عودة الروح » (كتبها عام ١٩٢٧ م ، وظهرت عام ١٩٣٣ م) مسجلاً جانباً من سيرته الذاتية ، واعترافاته الشخصية روائياً مستلهماً طفولته وصباه .

فيعرض الظروف التى نشأ في ظلها ، وأرهفت إحساسه ، وغرست فى أعماقه مشاعر الفنان اليقظ لكل ما يدور حوله ، المتفطن للمتناقضات فى مجتمعه على الرغم من حداثة سنه ، والمنطوى على دقة إحساس لمعانى الخير والجمال فيما يحيطه .

فوالده يبعث به إلى القاهرة ليواصل تعليمه بعد أن حصل على الابتدائية . فينضم إلى عميه وعمته حيث يسكنون فى المنزل رقم ٣٥ شارع سلامة بحى البغالة بالسيدة .

وفى هذه البيئة الجديدة أخذت تتراكم صور وذكريات إلى جانب ذكريات الريف المصرى الذى ولد بين أحضانه ، نقلها معبرة عن فترة من حياته ، كتبها عندما كان يشتد حنينه إلى وطنه وهو فى فرنسا . (كما فعل د . طه حسين فى « الأيام » و هيكل فى « زينب » وسهيل ادريس فى « الحى اللاتينى ») .

وجاءت حافلة بالصور الإنسانية التى تدل على تعاطفه مع أبناء الشعب الذين يعيشون على الكفاف ، فلا ينسى يوم أن ارتدى ثيابه الجديدة الفاخرة ، بينما خادمهم يلبس ثوباً ممزقاً متهرئاً ، ولمح فى نظراته التى يختلسها إليه البراءة والخضوع فأثارت هذه النظرة ذكرى بعيدة « قديمة من أيام طفولته الأولى يوم كان له من العمر ثمان سنوات ، له رفاق صغار فقراء ، وكان أغناهم » (جـ ١ ص ٤٧) .

وكان يدفعه تعاطفه مع أنداده الفقراء أن ينكر اسم أسرته وثراءها ، ولكنه فوجئ يوماً بالعربة تنتظره على باب المدرسة ، فعرف رفاقه الفرق بينه وبينهم « وعندئذٍ جعلوا يرسلون إليه النظر طوراً وطوراً إلى العربة الفاخرة بجواديها المطهمين نظرات بريئة ساذجة فيها شبه ذلة وخضوع » .

وكانت أم « الحكيم » ذات الأصل التركى تحس بظهور ذاتيتها ، وأصالة الدم الذى يجرى فى عروقها ، وتفوقها على قريناتها ، وتميزت بصرامة الطبع والاعتزاز بعنصرها أمام زوجها المصرى .

وسبب ذلك لتوفيق الحكيم إحساساً بالغربة بين أهله يعترف بها فى قوله : « إنه غريب بين أهله ، وان شيئاً لا يستوضحه يفصل بينه وبين والديه . إنه مهما صنع فلابد من تلك الكلفة والغموض » (جـ ٢ ص ١٥) .

وعرف فى نفسه منذ طفولته الميل إلى الهدوء ، والعكوف والاتزان والوقار فهو « قلما كان يُرى جارياً قافزاً . كل ملاهيه والعابه فكرية . ألذ أوقاته ما كان يقضيها فى المناظرة ومطارحة الشعر مع من يتفق فى طبيعته الروحية الهادئة » (جـ ١ ص ١٢١) .

واختار فى دراسته القسم الأدبى استجابة لميل غريزى فيه نحو الأدب لأنه أراد أن يكون « لسان الأمة الناطق » .

ويعود الحكيم إلى هذا المعنى أكثر من مرة عندما يتحدث عن الهدف الذى اختاره غاية فى حياته . فهو يسترجع رؤياه فى طفولته وصباه ليوسع مغزى هذا الاتجاه ، ويستخرج مدلوله ، فيقول : « أعتقد أن أهم خطوة فى حياتى ، هى أنى استطعت أن أحدد هدفى منذ الصبا ... وطنت العزم على أن أكون أديباً كاتباً ، ولم أدرك لذلك سبباً ، كنت قررت فى نفسى مصيرى ..

وهذا القرار الذى يتخذه الإنسان فى شأن مصيره قلما تنقضه الأيام ، إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان »[1] .

وقد بدأ ولعه بالموسيقى والغناء منذ السادسة من عمره ، حينما تعرف على الأوسطى « لبيبة شخلع » التى كانت تتردد على بيت جدته للترفيه عنها بالغناء .

ويتعرف فى حى السيدة زينب على « سنية » بنت السابعة عشرة فتحرك وجدانه الذى ينبض بالحب لها . وفى زيارتها يعزف لها على « البيانو » ويردد شعر الغزل .

وإذا تجاوزنا مرحلة الطفولة والصبا ، التقينا بشباب توفيق الحكيم فى قصة « عصفور من الشرق » (**١٩٣٧** م) التى يكشف فيها عن ذاته روائياً بين تيارات الفكر واتجاهات الرأى المتعارضة بين الشرق والغرب . وهذه ظاهرة نجدها عند بعض أدبائنا العرب الذين عاشوا فى الغرب ، فصاغوا تجربتهم روائياً ، كما فى « قنديل أم هاشم » للأديب يحيى حقى ، و « أديب » للدكتور طه حسين ، و « الحى اللاتينى » لسهيل ادريس ، و « مذكرات طالب بعثة » للويس عوض .

وتعتبر قصة « عصفور من الشرق » لوناً من ألوان رواية التجربة الشخصية التى تظهر المؤلف وشخصيته آخذة فى النمو والتكامل الفكرى .

وفى قصة « زهرة العمر » (**١٩٤٤** م) تكمل صورة فتر شباب « توفيق الحكيم » وتظهرنا على تكوينه الفكرى ، وتشكيله الثقافى ، ومثابرته التى نجم عنها الجانب المكتسب فى شخصيته .

ففيها « رسائل » تبين منهجه فى تثقيف نفسه ، وتربية ذاته ، وتعبيره عن آماله وطموحه ، وصمود إرادته حيال العقبات .

وعن قيمة هذه الرسائل بالنسبة إليه يعترف بأن « هذه الرسائل جزء منى ، وقطعة من حياتى ، هى زهرة عمرى أيام الكد فى سبيل التكوين الفنى » .

ومن « رواية السيرة الذاتية » إلى « الرسائل » الشخصية ، ينتقل « توفيق الحكيم » إلى « اليوميات » التى تعد امتداداً طبيعياً لألوان السير الذاتية . إلا أن الحكيم يمزج بينها وبين

(١) الدكتور أحمد أمين ـ علمتنى الحياة . القاهرة ، دار الهلال ، **١٩٥٣** . ص ٣٠ .

الطابع الروائى فى « يوميات نائب فى الأرياف » (١٩٣٧ م) .

ويتساءل فى مقدمتها : « لماذا أدون حياتى فى يوميات ؟... فى هذه اليوميات أملك الكلام عن الجريمة وعن نفسى ، وعن الكائنات جميعاً » .

وهى تصوير لرجال الإدارة ، ينطوى على استنكار ، واحتجاج وسخرية وتحذير . وتسجيل لحياته وحيداً وسط ريف مصر ، كل ذلك يعرضه فى صور متتابعة قائمة على دقة الملاحظة الشخصية والتأمل الذاتى ، والتجربة الحية المعاشة .

ثم ينتقل « الحكيم » من « اليوميات » إلى « الذكريات » فى كتابه « من ذكريات الفن والقضاء » . اذ يعرض ذكرياته التى تحدد سمات شخصيته كفنان على الرغم من طبيعة عمله ووظيفته كوكيل للنيابة فى السلك القضائى حيث كانت جلسات المحاكم لا تقل غرابة ومتعة وإثارة عما يعرض على خشبة المسرح . فيتضمن محضر التحقيق حواراً قد لا يقل روعة وحبكة عن الحوار المسرحى . وفى جلسة المحكمة تعرض المسرحيات نهاراً ودون « مكياج » يؤدى المسؤولون فى ساحتها أدوارهم .

وطوال عرض صفحات هذه الذكريات لا يستطيع الحكيم الانفلات من روح الفنان الذى يقول عنه « سومرست موم » « إنه يعتقد ان العالم لم يخلق إلا ليمارس فيه الفنان قدرته على الخلق الفنى .. لأنه مهما تكن الضرورة لا يستطيع إلا أن يكون متفرجاً ، وممثلاً فى وقت واحد » .

ثم يعود الحكيم إلى حياته فى سيرته الذاتية « سجن العمر » التى يقول عنها : « هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة .. إنها تعليل وتفسير لحياة .. فهو يعود إلى عرض حياته من زاوية جديدة ، يريد فيها أن يعلل هذه الحياة ويفسرها ، وهى تعالج الجانب الموروث فيه » ، والإنسان حر فى الفكر ، سجين فى الطبع ، ولست أدرى أهى مجرد مصادفة أن أكتب عن تكوين الفكر فى « زهرة العمر » قبل أن أكتب عن تكوين الطبع فى « سجن العمر » . ولذا فالحكيم فى متابعته للموروث فى تكوين شخصيته يكشف عن صفات والديه ، وتكاد تكون هى نفس الصفات التى ذكرها فى روايته « عودة الروح » . فوالده رزين ، متزن ، وقور ، يميل إلى العزلة ، والتأمل ، ويستغرق فى التفكير بعمق قبل أن يعلن رأياً أو يشارك فى

حديث ، شديد الاحساس بأعباء المسؤولية . طيب القلب ، نادر اقتراف الشر ، كثير الخبث قليل المصارحة .

أما والدته فهى ذات شخصية قوية ، ثائرة وعنيفة ، لا تخلو من طيبة أحياناً ، تتقمصها روح الشر حيال من يعتدى على أمر يمسها معنوياً أو مادياً . بيد أنها لا تجيد التخابث أو تمارسه إطلاقاً لأنها صريحة جريئة فى الجهر برأيها ، والدفاع عن وجهة نظرها . وذات قدرة على مواجهة المواقف وحدها متحدية .

ويعترف « الحكيم » بأنه قد ورث عنهما « كل هذا بنسب متفاوتة » .

وإذ يتناول بالتحليل خصائص والديه المزاجية والانفعالية يتساءل « هذا السجن الذى أعيش فيه من وراثات ، كأنها الجدران ، هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ حاولت كثيراً كما يحاول كل سجين أن يفلت ، ولكنى كمن يتحرك فى أغلال أبدية » .

وقد ورث أخوه عن أمه العنف والجرأة ، أما هو فقد ورث عن أبيه الهدوء والعكوف والتأمل والكثير من سمات أبيه الأخلاقية .

وقد ولد الحكيم موفور الصحة والعافية ، ولكن هذه الصحة لا تدوم طويلاً ، إذ يصيبه المرض الذى كاد لا يفارقه إلا عندما تقدم به العمر .

ولكنه يصاب بمرض آخر يلازمه طوال حياته ، ولا يستطيع منه فكاكاً ، ألا وهو القلق النفسى والفكرى ، حتى فى الأوقات التى لم يكن هناك مبررٌ له فإن « هذا القلق الروحى والفكرى لا ينتهى عندى أبداً ولا يهدأ . إنى سجينه سجن الأبد » كما يقول :

وينقب « الحكيم » عن منابع الإحساس بالجمال والإحساس بالحب فى طفولته ، ونتابع معه رحلة تعليمه .

وما أكثر ما يطلعنا على صور من الحياة والمجتمع فى المدن والقرى التى كان ينتقل إليها والده بحكم عمله قاضياً . ويصف أطوار حياته ، وهو يخالط أهل الفن فى الإسكندرية والقاهرة .

وبعد رحلة طويلة حاشدة بصراعه مع الموروثات يعترف بأن ما قام به من الغوص فى أعماقه

إنما هو « محاولة كشف شيء عن تكوين هذا الطبع الذى أتخبط بين قضبان سجنه طول العمر » .

ولا شك أن هذا النتاج الذى قدم فيه الحكيم حياته فى ألوان من السير الذاتية ، يقربنا من فكره ، ويطلعنا على أحاسيسه وعواطفه ، ومكوناته الفكرية ، وهو لا يقف عند مجرد « التعبير » بل يتجاوزه إلى « التفسير » . والتفسير هو رأى الكاتب وموقفه من أحداث تقع فى بيئة تحيط به ، ويقول « الحكيم » فى كتابه « التعادلية » : « لقد كان من الممكن أن تكون « عودة الروح » مثلاً مجرد قصة تصور الحياة ... ولكنى ألزمت نفسى بتفسير خاص للروح المصرية ... وتفسير الحياة لشعب معناه اتخاذ رأى معين تجاه هذا الشعب . وهذا التفسير أيضاً الرأى ، والموقف تجاه الحكام والمحكومين قد ظهر فى « يوميات نائب فى الأرياف » فهى ليست مجرد تصوير لحياة » (ص ١٠٢) .

ومن الواضح أن هناك علاقة تكامل بين الأعمال التى قدمها « الحكيم » متناولاً سيرته الذاتية بما فيها من اعترافات . فهى تعبر عن مسار حياته فى فترات متتابعة ، ثم يقفِ من هذه الحياة فى جملتها ليشملها بنظرة تحيط بأبعادها وأغوارها منذ الطفولة المبكرة ، وليفسر ما هو موروث ، وما هو مكسوب فى طباعه حتى يعطى القارئ فى النهاية صورة صريحة واضحة عن حياته .

❊ ❊ ❊

تربية .. سلامة موسى ..

يلقى « سلامة موسى » (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨ م) فى مفتتح سيرته الذاتية التى أطلق عليها : « تربية سلامة موسى » (١٩٤٧ م) الضوء على العصر الذى أحس وطأته على نفسه حيث ساد مجتمعه « الرضا بالحظ المقسوم والإيمان بالخرافات والتسليم بالنظم الإقطاعية » . ومعالم تراث القرن التاسع عشر ، وبعض القرون السابقة تعكس ظلها على المجتمع حتى الأربعينات .

وقبل أن نصاحب « سلامة موسى » فى الطريق الذى سار فيه ليربى نفسه ثقافياً واجتماعياً ، يكشف لنا عن الظروف التى أحاطت بنشأته طفلاً مبيناً ما ورثه من صفات عائلية ، وما أضيف اليه اكتساباً .

ففى ظل عائلة يغلب عليها الانطواء نشأ ، ومات أبوه وهو ابن سنتين ، ولم تكن علاقة الأسرة الاجتماعية تتجاوز حدودها فزاده ذلك عزلة وانطواءً ، ولم يكن أمامه من سبيل يفتح به طاقة يطل منها على المجتمع إلا العكوف على الكتب ليعوض حرمانه من الاندماج فى الحياة الاجتماعية .

وظاهرة الانطواء ، واكتشاف التفريج فى قراءة الكتب أثناء الطفولة ظاهرة يشترك فيها بعض أدبائنا مثل توفيق الحكيم وأحمد أمين وعباس العقاد ، مع تباين البواعث والمبررات والدوافع ، ويشاركهم « سلامة موسى » فى أنهم لا يذكرون طفولتهم إلا ويشيرون إلى مرض أصابهم وكان منتشراً مع عجز فى الوقاية والعلاج .

يقول « سلامة موسى » : « مما أذكره من تلك السنوات أى بين ١٨٩٥و١٨٩٨ م أن وباء الكوليرا فشا فى الزقازيق . فكانت النعوش تخرج متوالية » .

وفى مراحل تعليمه المدرسية صادف القهر ، وعانى من قسوة العقوبات والقمع الذى فرضه عليه مجتمعه فتحول إلى كبت ، ودفعه ذلك إلى ما يعترف به بوصفه : « العربدة الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى . وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة » .

ثم يجد متنفساً ، ومهرباً من معاناة « القلق النفسى » بالارتحال إلى فرنسا عام ١٩٠٨ م .

وهناك ينعكس على سلوكه أثر عدم الاختلاط فيضطرب فى حديثه مع المرأة .

وفى باريس عاش الظروف التى يسرت له الاتصال بالآداب المختلفة ثم رحل إلى انجلترا حيث اكتشف فى الثقافة الإنجليزية الاتجاه العلمى ، فأقبل عليها فى شغف مما جعله يعزو ثقافته إليها أكثر من الثقافة الفرنسية .

وتنوعت دراساته بين نظامية ، وحرة ، وزيارات للمتاحف والآثار ، إلى جانب انخراطه فى الجمعية « الفابية » التى كان بين أعضائها من هو ملم بكل جديد فى العلم والفلسفة والدين .

ثم يصادف المرأة فى إنجلترا إذ يحب فتاة إيرلندية ، ويعترف بقوله إنها : « استسلمت لى ، واستسلمت لها » ، وكان يتمنى زواجها .

وترجع أهمية الفترة التى عاشها فى إنجلترا إلى أنها غرست بذور أصول ثقافته واتجاهاته الفكرية ، إذ أن ما اكتسبه من معرفة بعد العشرين استمد أصوله من النظريات والمذاهب التى عرفها خلالها .

ولا ريب أن رأى « سلامة موسى » فى المفكرين والأدباء الذين عرفهم فى سنى تكوينه الفكرى الأولى يكشف اتجاهاته الفكرية والأدبية .

فقيمة « برنارد شو » أنه يوجه العقول نحو البحث والاطلاع ، ونزعته علمية ممتزجة بالنزعة الفنية .

و « ويلز » نزعته واقعية ، وهو الأب الروحى للعالم الجديد ، ولذا فكان تأثيره فيه نفسياً أكثر منه ذهنياً .

كذلك كوّن للثقافة مفهوماً قاده طوال حياته فى تربيته الذاتية « غاية الثقافة أن تزيد الحياة وجداناً بأن تجعل مشكلات العالم مشكلاتنا الشخصية لأن الحياة تنادينا إلى اليقظة والفهم والجد ، كلما استولى علينا النعاس والركود . والرجل المثقف هو الذى يرتفع وجدانه الشخصى إلى الوجدان العالمى .. » .

وإذ يقيم « سلامة موسى » منهجه فى التثقيف الذاتى يأسف أنه لم يجد المرشد الذى يعين له منهجاً فى العلوم . وكان هدفه دائماً أن يكون موسوعياً فى المعرفة ، فيقول : « إنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت تخصصت لأن المتخصص فى الجيولوجيا والبيولوجيا أو الإيكولوجيا قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية » .

ويحدثنا عن الزواج ، فيرى أن الصعوبتين اللتين ظهرتا فى حياته الزوجية أنه يحترف الأدب والصحافة ، ويشغف بالقراءة وهوايته الثقافة . والزوجة ترى فى الإنفاق على شراء الكتب إسرافاً ، فيعهد بتثقيف زوجته .

وعبر أحداث عاشها ، وشخصيات عرفها ، وتأثر بها وكفاح بالقلم يتساءل : « ماذا أفدنا من الماضى ، وننتظر من المستقبل ؟ » .

فيقرر أنه استفاد وتأثر من جامعة الكتب فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية . ومن سياحاته فى أوربا ، وتجاربه الشخصية .

والتربية الحقيقية هى ثمرة العمل لكل إنسان ، وهى فى النهاية اختباراته طوال حياته .

ومن المصادفات الحسنة فى حياته أنه لم يشعر بالحاجة المالية الملحة ، وتعلم اللغات فى سن مبكر مما مكنه من الاتصال بالثقافات الأوربية العصرية ، ونقل الأفكار الحديثة لمجتمعه .

ولم تفتر اهتماماته الثقافية فى سن الستين بل زادت ونمت ، وازداد وجدانه إقبالاً على الدنيا . ومن ثمة تضاءلت همومه الشخصية إلى جانب اهتماماته العامة .

ولذا فقد وضع برنامجاً ثقافياً للعشر سنين الأولى بعد الستين ليقرأ بعض الكتب التى لم يقرأها ، ويعيد قراءة بعض المؤلفات التى تركت فى نفسه شكوكاً أو شبهات ثقافية ، مثل كتاب « الغصن الذهبى » ويتعمق السيكولوجيا ، والبيولوجيا ، ويعكف على قراءة مؤلفات الفيلسوف اليونانى « أرسطو طاليس » ويتأمل أفكاره فى نظرية التطور ، ويطلع على ألوان المعارف التى

يشعر أنه فى حاجة إلى استيعاب حقائقها .

ويأمل أن يخطط لبرنامج ثقافى آخر لأن الشباب فى الثمانين والتسعين ، لم يعد أمنية بعيدة المنال ، بل هو حقيقة واقعة متمثلة فى مئات من الذين اهتموا بثقافة الذهن والجسم معاً .

وفى السبعين أعلن رضاه عن حياته التى عاشها ، وهو يسترجع أحداثها وأطوارها ، ويعترف بأنه يهتم بالدنيا ومصير الإنسان ، أكثر من اهتمامه بنفسه ، وأعظم لذة عنده هى « اللذة الفلسفية » .

ويعتبر سيرته « تربية سلامة موسى » خير ما ألف « فإنه اعترافات صفيت فيها حسابى مع المجتمع الذى أعيش فيه وسردت حياتى بكل ما تحوى من صفاء وغبار »

والحق أن « سلامة موسى » فى سيرته قد أحاط القارئ بكافة أحداث حياته ، وأفضى بكوامن نفسه ، وبين أثر العالم من حوله وتياراته الثقافية فى تشكيل اتجاهاته الفكرية ، وكشف عن أثره هو ذاته فى ماجريات وقائع مجتمعه الثقافية . وبالتالى فقد حاول أن يكون مرشداً من خلال تربيته ليعين القارئ على تفتح آفاق ثقافته الفكرية .



أنا .. عباس محمود العقاد

من كان مثله مكانة فى عالم الفكر والأدب ، يشوق القارئ متابعة خطاه وهو يشق طريقه فى الحياة ، ويطلع على سبل جهاده وكفاحه حتى تحقق له الشأو البعيد فى شتى المجالات الفكرية والأدبية التى خاض غمارها ، ذلك هو الأستاذ الكاتب المفكر الأديب عباس محمود العقاد (١٨٨٩ _ ١٩٦٤ م) .

كما يثير القارئ أن يعرف كيف كان لنبض العاطفة أثرها فى حياته التى تميزت بالجد والصلابة . وهذا ما يقدمه فى روايته الوحيدة « سارة » (١٩٣٨ م) التى تستمد وقائعها من حب حقيقى نشأ بينه وبين من أطلق عليها اسم روايته .

إلا أن الصلة بين الرواية والترجمة الذاتية التى تشكل منها رواية سيرة ذاتية ، نتوقع منها أن تركز على تقلباته العاطفية ، تكاد تطمس لنجد أنفسنا أمام نزعات العقاد العقلية التحليلية ، وصياغاته المنطقية ، وقدرته المتميزة على التعليل والتفسير .(١)

فهو يعرض بتركيز حالة شك وريبة تملكت محباً ، وطغت على أطوار علاقته بمحبوبته ، وجعلت لحظات الصفاء والجفاء سابقة أو لاحقة لحالات الشك التى سيطرت على عقله ووجدانه .

وهو فى حبه يمثل شباب عصره بما عانوه من شك وحيرة وضياع حيث جرت وقائع غرامه فى الفترة التى سبقت الثلاثينات ، بعد اليقين بأن ثورة ١٩١٩ م المصرية لم تحقق الآمال .

وبطل « سارة » هو « همام » فيه خصائص العقاد الذهنية ونظرته للأمور ، لاسيما آراؤه فى المرأة وقضايا الحب ، والاعتزاز بالذات . وهو فى حبه ذو كبرياء ، لم يتخذ موقفاً من محبوبته إلا وقابله بعدة مواقف ليدافع عن موقفه حتى لا ينطوى على مظنة ضعف به ، ويقيم الدفاع

(١) الدكتور عبد المحسن طه بدر _ تطور الرواية العربية _ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ . ص ٣٥٦ .

ليبرهن أن ما أتاه يأتيه كل إنسان .

والمحب (العقاد ذاته) نصيبه من التحليل النفسى ، وسبر الأغوار ، يفوق المحبوبة . ونفسه مرآة تنعكس عليها أحداث الرواية ، وإن كانت الأحداث تكاد تنعدم إلا أن يكون نزوعاً سلوكياً يصدر عن قصد أو دون قصد ، وفى كلتا الحالتين يخضع لتفسير التحليل النفسي وتأويله . و « العميل » والمحلل النفسي فى « سارة » هما المؤلف نفسه . والمحلل يميل بسجيته إلى التركيز على ذاته ، وإقرارها ، واستبطان جيشان الانفعالات فى أعماقه .

وكاتب الرواية يُعمل الذهن فى جد على أن يلم بأطراف نفوس شخوصه الروائية كل الالمام ، ويغوص وراء سلوكهم الظاهر والباطن . ويطلعنا على سريرتهم وخبيئة ضمائرهم اطلاع الاحاطة والشمول .

وعلى الرغم من أنه حاول أن يجد تعليلاً لكل فعل أتاه إلا أن أفعالاً أخرى يعرضها ولا يجد لها تعليلاً « السبب هو الحيرة الملحاح التى تستحثنا إلى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة » (ص ١٥٦) .

وعلى أية حالة فقد نقل « العقاد » روائياً ذلك الحب الذى ربط بينه وبين « سارة » أو « إليس » (اسمها الحقيقى) اللبنانية التى تعرف عليها فى « بنسيون » (فيللا نتروز) الذى كانت تديره السيدة « ماريانا » حيث كان يقيم صديقه الدكتور محمد صبرى السوربونى (زاهر فى الرواية) . وكانت سارة فى الخامسة والعشرين من عائلة « أسعد داغر » الصحفية .

وأحبها « العقاد » وقال فيها :

ماذا من الدنيا لعمرى أريد أنت هى الدنيا ، فهل من مزيد
فيك لنا نور ونار معاً وأنجم زهر وأفق بعيد

ثم انتهى الحب العارم بالشك المريب ، فالقطيعة ، ثم تركت مصر وسافرت إلى باريس حيث تعيش منذ ذلك الحين .

ويبدو أن « العقاد » أراد أن ينقل الشك الذى ألقى ظلاله القاتمة على محبوبته إلى القارئ نفسه فيتساءل : « أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق » (١٩٠) .

ويدون « العقاد » أطوار حياته فى مجموعة مقالات يجمعها فى كتابين الأول يعرض حياته الشخصية ، وصفاته الموروثة والمكسوبة ، وآماله وأهدافه ، وتأثير بيئته فى طفولته وصباه ، وما انطبع فى نفسه من إيمان وعقيدة ، وذلك فى كتابه « أنا » (١٩٦٤) حيث يتعرف القارئ على « العقاد » الإنسان كما يعرف هو نفسه لا كما يعرفه الناس .

أما حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية ، والأحداث التى اجتازها ، وكان لقلمه دور فيها ، فذلك موضوع كتابه الثانى « حياة قلم » (١٩٦٥ م) .

ومن هذين الكتابين تتكون سيرة ذاتية مباشرة للعقاد يصف فيها الأحداث البارزة التى تحمل دلالة تدنينا من أعماقه ، وتكشف حقيقته الكامنة وراء ظاهره .

فقد يخطئ بعض الناس ويرونه مفرطاً فى الكبرياء ، والقسوة والجفاء ، يقضى حياته بين الكتب ولا يباشر الحياة ذاتها .

ولكن « العقاد » كان يؤمن بجدوى التجارب فى الحياة ، تلك التى تسفر عن خبرات لا تغنى عنها قراءة الكتب إذ يرى : « إننا نحتاج التجارب التى تفيد فى فهم الكتب وتوسيع دلالات محتواها ، والتجارب فى ذاتها لا تغنى عن الكتب لأن الكتب محصلة تجارب آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور ، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الواحد أكثر من عشرات السنين » .

وقد يظنه البعض لا تأثير للوجدان فيه ، لا تفتر شفتاه عن ابتسامة ولكنه يقرر أنه مفرط فى التواضع لا تمر لحظة واحدة من يومه لا يخضع فيها لسلطان القلب والعاطفة ، وهو كثير الضحك ، لا يعامل إنساناً إلا بما يستحقه .

وهو مطبوع على العزلة والانطواء ، بما ورثه عن والديه ، وأحداث الطفولة المبكرة ، وتجارب الحياة .

فقد عاصر فى طفولته وباء « الكوليرا » يجتاح أسوان ، ووقعت فى بيته إصابتان ، فتركت أحداث الوباء أثرها فى نفسه ، وولدت عنده إحساساً بالوحشة حببت إليه الخلوة والانفراد .

وعُرف أبوه بإيمانه الشديد ، واحتقاره للمال ، وكانت أمه عميقة التقوى ، سليمة البنية ، ورثت ذلك عن أبيها وجدها ، وكذلك حب الصمت والاعتكاف .

وورث « العقاد » الصمت والعكوف عن والديه ، وكثيراً من الصفات إلا القصد فى النفقة وتدبير المال .

وكان لأسوان أثرها فى تكوينه الفكرى « فيدين لها بالإنسانية فى الأدب ، وبالعالمية فى السياسة ، وبالوطن الذى تتسع له آفاق الفكر والشعور » فيما يقول العقاد :

وقد تنبأ له الشيخ الإمام محمد عبده عند اطلاعه على كتابته فى موضوعات الإنشاء العربية فى زيارته لمدرسته بأنه سيكون ذا شأن فى الأدب ، مما شجعه على الاطلاع ، وزاد من إقباله على القراءة .

فلم يعرف سناً لم يكن فيه راغباً فى معرفة كل شئ ، مما وسع آفاق ذهنه .

وفلسفة « العقاد » فى الحياة تكمن فى الموروث من طباعه فهو قليل الاكترات بالمقتنيات المادية ، لا ينتظر من الناس كثيراً ، شديد الإيمان بالله ، وتفسير الخليقة عنده بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون ، وفلسفته فى العمل ، أن « قيمة العمل فيه ، وفى بواعثه لا غاياته » .

و « العقاد » يستبطن ذاته فى يقظة ووعى لا يفلت منه كل ما يعتريه من عناصر التحولات النفسية الأصيلة ، ولا يزيد عليها ، ولا ينقص منها . وكل ما انطوت عليه نفسه من أخلاق وأطوار وشهوات فى إبان الشباب الأولى استمرت قائمة فى العشرين وفى الخامسة والعشرين ، فالسن لا تغير الطبائع ولا تضيف إلى عناصر النفس أو تأخذ منها ، ولكنها تعرفنا بمقاديرها ، ومواقعها وتنقلها من غليان مهم إلى استقرار واضح .

و « العقاد » إذ يسجل اعترافاته ، فإنه يعتبرها نوعاً من التعريف به ، ذلك أنه يعترف بالخصائص النفسية التى تدل الناس على بعض الحقائق فى الطبيعة الإنسانية . وهى أجدى من الاعتراف بالعيوب والخطايا ألتى يتشابه فيها أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة .

ولكن نبرة الاعترافات عند « العقاد » يسودها إحساس صاحبها بكماله ، فبعض الصفات التى يذكرها عن نفسه ، وقد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنها نقيصة ، يرد فيها بتعليل كأنه فى حالة دفاع عن النفس .

فإذا كان قد عرف فى نفسه ميلاً إلى الانطواء ، فإنه يردف بخلوه من العقد النفسية الشائعة

بين أنداده فى السن والعمل ، والعصر .

وإذا اعترف بزهده ، قرر أنه زهد لا فضل له فيه ، لأنه لا يكلفه مغالبة أو مقاومة ، وعندما يقرر خصيصة العناد فيه والتشبث أوضح أن ذلك عن عزيمة وصدق إرادة .

ومن اعترافاته الأدبية أنه يقرأ لنفسه موضوعات لم يكتب فيها للقراء حرفاً واحداً . ولا يطيق التواضع الكاذب ؛ ويحب الشهرة والخلود ، ولكنه لا يطلبها بثمن يهدر كرامته .

ومع محاولة « العقاد » أن يعرف نفسه يقرر « أن الإنسان لو عرف نفسه لعرف كل شئ فى الأرض والسماء ، وفى الجهر والخفاء ، ولم يتوفر ذلك لأحد من أبناء الفناء ، ولكن غاية ما يستطيعه الإنسان هي أن يعرف حدود نفسه حيث تلتقى بما حولها من الأحياء والأشياء » .

وقد عرف « العقاد » عن نفسه الثقة بها ، وعلمته تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التى تنفرد بها ، ولا تغيظهم النقائص التى تعيبها ، وهو يسئ الظن بالناس لأنه يحسن الظن بهم .

وهو أعجز الناس عن دفع حاجز واحد يقام بينه وبين إنسان ، ولاسيا حاجز الكلفة والإعراض ، ويكره الهزيمة فى كل مجال ، ويعترف بأن العادة قوية السلطان على سليقته وخلقه ولا تعصمه منها إلا الثورة النفسية ، وأشدها ما كان ثورة للكرامة أو الحقيقة كما يؤمن بها ، كما أنه يعامل الناس والأشياء كأنهم معان مجردة فى الضمير ، لا كأنهم شخوص ومحسوسات .

ومن الاعتراف والتعريف بحدود النفس كما يقررها « العقاد » ، وتجارب حياته وخبراتها ، تكمل صورة أديب عملاق استبطن سريرة النفس من خلال عقل عالم أديب فنان .

وبذلك ترتسم « سيرة ذاتية » خصبة عميقة تضيف إلى خبراتنا خبرات ، وتوسع آفاق حياتنا ، وتجعلنا نسلم معه بأنها سيرة ذاتية متعددة الألوان والأبعاد ، وهى من تلك الكتب التى وإن كانت لا تغنى عن الحياة وتجاربها ، إلا أنها تساعد على فهم الحياة ، كما تعين التجارب فى الحياة .

وقد تميزت سيرة « العقاد » الذاتية بالصراحة والوضوح ، كما أننا نحس وكأن أفكاره وآراءه فى الحياة والناس تعيش نابضة بالحركة بيننا لأنها مستمدة من الحياة الخالدة ، ومحللة ببصيرة نافذة ، ومكتوبة بصدق وأمانة .

* * *

حياة .. أحمد أمين

سجل أحمد أمين (١٨٨٧ ـ ١٩٥٤ م) فى بعض المقالات جوانب من سيرة حياته ، تدل عناوينها على أنه استمدها من خبراته الشخصية مثل « قصة من حياتى » و « ستة أيام فى حياتى » و « اعترافاتى » .

وما تضمنته هذه المقالات من خفايا ذاتية ، يضيف اليها أموراً أخرى يفصلها لتشكل ترجمة ذاتية كاملة لحياته فى سيرته « حياتى » (١٩٥٠ م)

ويستهلها بتعميات حول الوراثة ، والبيئة ، وأثرهما فى تكوين شخصيته مطبقة على نفسه فيقول : « عمل على تكوينى إلى حد كبير ما ورثته عن آبائى ، والحياة الاقتصادية التى كانت تسود بيتنا ، والدين الذى سيطر علينا ، واللغة التى نتكلم بها ، وأدبنا الشعبى الذى كان يروى لنا ، ونوع التربية الذى كان مرسوماً فى ذهن أبوىّ .. فأنا لم أصنع ذاتى ، ولكن صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة » .

وعلى هذا النحو يقرر أن ما يختص به من صفات عناد ، وقوة إرادة ، وجلد ، وصبر ، وسرعة غضب ، وميل إلى الحزن ، وكثرة تفكير فى العواقب ، ورثه عن أبيه .

أما حسن ظنه بالناس ، وسذاجته ، وإسرافه ، وتحوله السريع من غضب إلى هدوء ، فقد ورثه عن أمه . (ص ٢٧٢) .

ثم يفصح عن سماته المزاجية والخلقية ، فهو حيي ، خجول ، ميال للعزلة ، وإذا خطب لا يهاب ، طموح ، قنوع ، نزاع للتصوف ، إذا غضب تعدى طوره ، شديد الحساسية ، يخاف على سمعته ، شجاع فى الحق .

ويكاد أحمد أمين لا يترك صغيرة أو كبيرة من الأمور التى مرت بحياته إلا سردها تفصيلاً . والذى أدى به إلى ذلك النهج ميله إلى مراجعة نفسه ، والانفراد بها يومياً .

فيقول فى مقاله المعنون « حديث النفس » : « اعتدت كل يوم أن أخلو إلى نفسى لحظات ، أفكر فيما مر على من أحداث اليوم .. ولا أعد يوماً لم أتمكن فيه من هذه الخلوة سواء كان ذلك فى رحلتى أو إقامتى »(١) .

ولذا جاءت سيرته مزيجاً من سرد لا يتقيد بالتتابع الزمنى ، ونوع من توارد الخواطر ، وشكل من اليوميات .

وقد نشأ أحمد أمين فى بيت جاد ، تسوده الصرامة ، حيث والده متجهم دوماً ، شديد عبوس الوجه ، لا يعنيه إدخال المسرة إلى قلب أبنائه .

ومن ثمة كان أحمد أمين مفرطاً فى الجد والجهامة ، يتحاشى المرح والابتهاج ، يميل إلى الاكتئاب والحزن .

وقد بدأ تعليمه فى « الكُتاب » بالقاهرة ، وهو كُتاب لا يختلف عن « كُتاب » القرية الذى تعلم فيه طه حسين .

ويمر بمراحل تعليم شاقة يحاول أن يجمع فيها بين الدراسة فى المدارس الحديثة ، والأزهرية تحقيقاً لرغبة والده .

ثم يستقر به المقام بالأزهر فيرتدى العمامة والجبة والمركوب ، ويبدو وكأنه قد تجاوز مرحلة الطفولة ، لاسيما بسبب العمامة التى كانت تعوق حركته ، فصار شيخاً قبل الأوان .

وكانت العمامة فى مقبل أيامه سبباً فى رفض العائلات أن يتزوج من بناتها . ثم يتخلص منها عند اشتغاله بالتعليم فى الجامعة .

ويصف الأزهر وانطباعاته فى نفسه ، كما فعل طه حسين فى « الأيام » . فالأزهر كان بالنسبة لطه حسين نقلة طبيعية وأملاً بعد الكُتاب ، أما أحمد أمين فكان يرى أن المسار الطبيعى له المدرسة الحديثة ، ولذا نقم منذ اللحظة الأولى عليه ، بينما طه حسين لم ينقده إلا عندما انخرط فى الدراسة فيه .

(١) الدكتور أحمد أمين ـ فيض الخاطر . جـ ٩ . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٥ . ص ٩٥ .

ويلحق أحمد أمين بالعمل أثناء دراسته ، وتنقل بين الوظائف والدراسة حتى صار مدرساً فى مدرسة القضاء ثم فى الجامعة .

ويسترجع فى حزن وألم ذكرى وفاة أخيه ، فتحس أنك أمام أسرة د . طه حسين عندما توفى أخوه فى « الأيام » . إنها نفس الأجواء التى يصنعها الحزن فى الأسرة العربية ، ونفس التقاليد التى تصاحب الموت سواء فى الريف المصرى ، أم فى القاهرة ، أم فى « بسكنتا » بلدة ميخائيل نعيمة فى لبنان .

أمٌ يهدها الحزن ، وأب لا حول له ولا قوة ، وسواد يلف الأجسام .

وتدرك كأن الأسرية العربية ما وُجدت إلا لتنتظر الفجيعة حتى تحزن عليها ، فهى تجيد التعبير عن الأحزان أكثر من الإفصاح عن الأفراح .

وتكون نقطة التحول النفسية والاجتماعية فى حياة أحمد أمين حينما يتعرف على السيدة الإنجليزية « مس بور » فلا ينكر فضلها عليه فى تعليمه الإنجليزية . وتنبهه إلى شبابه ليستمتع بالحياة . ذلك أنه أدهشها أن تراه وهو الشاب فى سمت الشيوخ ، وهو ابن السابعة والعشرين ، له وقارهم ، ومظهرهم . ونستحضر حديث « العقاد » عن وقاره المبكر فى « أنا » .

ولذا لا غرابة أن يقول « أحمد أمين » فى نهاية الثلاثين من عمره إنها : « تختم حياة الصبا والفتوة ، وتفتح حياة يغلب عليها العقل والروية ، على أنى – والأسف يملأ فؤادى – لم انتفع بزمن الصبا والفتوة كما كان يجب ، فلم يجد المرح والنشاط واللهو – ولو كان بريئاً – ولا الحب إلى قلبى منفذاً ، بل تشايخت منذ الصبا » . هكذا يعترف « أحمد أمين » فى صراحة عن إغفاله ممارسة ما تمليه طبيعة كل مرحلة من مراحل العمر .

وتكاد لا تجد فى سير أدبائنا الذاتية إشارة إلى شباب مقرون بجهاد فى مرح ، أو مراعاة التقاليد السائدة فى غير تزمت ، أو تثقيف ذات دون جهامة ، وتقطيب جبين ، كأن حياة الشباب السوية لا تستقيم إلا إذا قُرنت بالحرمان من مباهج الدنيا ، ولم تمارس الانطلاق المعقول ، ولم تعش المتعة النبيلة التى تفسح المجال للتنفيس عن العواطف .

والذى يستأهل الاهتمام عند تناول « أحمد أمين » متاعبه فى سبيل اختيار زوجة ، أنه يذكر ذلك تفصيلاً ثم ينتقل مباشرة إلى تعميمات فى شؤون الحياة الزوجية ، ولا يتوقف محللاً أعماق

هذه التجربة التى لا شك فى أنها كانت تنطوى على ما يستحق السرد ، حتى يكشف عن وقع التطورات الاجتماعية على الأسرة العربية فى ذلك الوقت . وذلك من خلال عقل وقلب شاب ديِّن اشترك فى تأسيس وتحرير جريدة « السفور » التى مثلت الدعوة إلى تحرير المرأة فى إبان إقدامه على طلب الزواج .

فقد كانت تثار فى الأوساط الاجتماعية التى يشارك فيها بالحضور مناقشات حول المرأة وقضيتها ، وكان « أحمد أمين » يمثل فكراً واعياً لكل التغيرات فى المجتمع ، فكيف إذاً واجه المرأة خطيبة ، وزوجة ، وأماً فى هذه المرحلة من حياته .

وما أكثر ما وصف « أحمد أمين » صور الحياة التى صادفته ، وعاشها ، والمشكلات التى واجهها .

وإن كان فى بعض صفحات سيرته الذاتية يكون تسجيله لبعض أركان حياته كأنه تقرير ادارى عن بعض فترات عمره . فتكاد تمر عليها فى عجل ، ثم تراه يتروى أحياناً فى مواضع أخرى ليستخرج من بعض ملابسات حياته العبرة ، والعظة ، مبيناً أثر انعكاس الأحداث على نفسه ، وتأثيرها فيه .

وما ان تصل إلى نهاية هذه المرحلة من الصور المتتابعة فى حياة « أحمد أمين » حتى تشعر أنه قد أوفى الصور ظلالها ورتوشها ، وأن هذه الحياة تحمل فى تضاعيفها كثيراً مما استحق أن تضمه سيرة حياة انسان تمسك بالقيم والمثل ، وآمن بالكفاح والعصامية ، وناضل حتى حقق أقصى ما يمكن أن يحققه كاتب أديب محقق فى التراث العربى والإسلامى ، مدافع عنه ، فكان لهذه الحياة أثرها فى إثراء الفكر والأدب الذى وهب حياته له .

* * *

نفس .. الدكتور زكي نجيب محمود

فى « قصة نفس » (١٩٦٧ م) للدكتور زكى نجيب محمود (١٩٠٢ م) ، يضعنا أمام ثلاثة شخوص تكون جوانب النفس الواحدة للمؤلف نفسه ، حيث نلتقى بجوانب متعددة لإنسان واحد فى سيرته الذاتية، إذ ليس الرجل رجلاً واحداً ، ولكنه عدة رجال فى إهاب واحد .

والشخوص الثلاثة كالجوانب من الشخص الواحد ، قد يعارض أو يوافق بعضهم بعضاً ، ولكنهم متصلون اتصالاً لا تنفصم عراه ، ظاهرهم اختلاف ، وباطنهم اتفاق . كأنهم ولدوا لأب واحد وأم واحدة .

والشخوص الذين يلجأ المؤلف عبر عرضه لحياتهم ، والغوص فى حناياهم ، إلى كشف مغاليق ذاته ، وبسط دخائلها ، هم الراوى للقصة ويطلق عليه حسام الدين محمود ، والأحدب رياض عطا ، ومصطفى عبد البارى .

ويستعين المؤلف د . زكى نجيب محمود بأكثر من طريقة ليستنتج القارئ أنه ليس أمام شخوص متباعدة كما قد يقع فى الوهم لأول وهلة . إذ أنهم متقاربون إلى حد أنهم شخصية واحدة .

فالقرية التى ولد فيها رياض يصفها بشئ من التعميم « بلد يقع فى شمال الدلتا بالقرب من البحر ، وكان المسافر إليه يركب القطار إلى أقرب محطة فى البر الغربى من فرع دمياط ، ثم يستقل مركباً يعبر به النيل إلى ضفته الشرقية منحرفاً بعض الشئ إلى الجنوب .. » . فإذا بنا فى قرية ريفية هى ذاتها القرية التى ولد فيها حسام الدين الذى يقول : « ولدت فى قرية بين المنصورة ودمياط ، هى نفسها القرية التى أسر فيها لويس التاسع » فنجد أنفسنا فى النهاية

داخل قرية « ميت الخولى عبد الله » بلدة المؤلف نفسه ، ومسقط رأسه .

والشخصية المحورية هى الأحدب رياض الذى يربط بين بقية الشخصيات ، وهو عابس الوجه ، جهم فى عينيه وداعة واستكانة ، فوق كتفيه حمل ثقيل ، إنه عبئ الحياة ، وإن رأى الحكمة فى التخفف من الأعباء ، إلا أنه لا يفعل شيئاً للخلاص منها ، فبرزت (قتيباً) على ظهره .

ومن أحداث تقع له فى طفولته نتلمس مفتاحاً لشخصيته ، ففى اختفائه فى الظلام خوف من شر يقع عليه ، ثم نتتبعه وهو يرقب الأحداث من حوله وهو فى مخبئه ، يكمن محور حياته كلها ، انطواء من ناحية ، وتسلل بالسمع وبالبصر فى الخفاء إلى ما يدور فى العالم من وقائع وأحداث من ناحية أخرى ، إنه شخصية نسيجها من ثلاثة يأس أكثر من الرجاء ، وانطواء أكثر من الظهور ، ورغبة فى البرهنة على قدراته .

لقد توظف مدرساً ، ثم تحول إلى كاتب فى المجلات الأدبية . وكان أبوه منبسطاً ، جريئاً ، حريصاً على إثبات وجوده ، مرحاً فى غير صخب ، يستغرقه الفكر العميق أحيانـاً ، وأمـه منطوية ، تخشى الناس ، مضحية بنفسها ، هادئة فى غير جهامة ، وعن أبيه أخذ الذكاء ، والنفس القلقة الطامحة فى عجز ، وعن أمه أخذ الرغبة فى التخفى عن قناعة ورضى .

عرف من الجنس صوراً ، وهو فى السابعة ، وانتابته فى المراهقة حالة تدين جارفة بلغت حد الدروشة ، فجمعت مراهقته بين الدين والجنس ، وذلك يتفق تماماً مع ما يفضى به عبد الرحمن شكرى فى « اعترافاته » . ويقول « رسل » الفيلسوف الإنجليزى عن مراهقته فى « سيرته » « كان الانشغال الجسدى بالجنس يلازمه تعلق شديد بالمثاليات ولم أفطن إذ ذاك إلى أن لهذا التعلق أساساً جنسياً » .

ومع تطور حياته ، أوغل فى الثقافة ، وأصبحت شغله الشاغل فى عمله وفراغه .

ونعرف عن حسام أنه يُعلى الفكر على العمل ، يحب الناس لآرائهم ، لا لأشخاصهم ، ويميل لمن يجادله فى الفكر والرأى .

أما مصطفى فقد آمن وهو يدرس الفلسفة فى لندن بأنها تحليل ، وليست أحكامـاً على الأشياء ، وأنها طريقة فى البحث بغير موضوع . ومهمة الفلسفة تحليل أقوال العلماء تحليلاً

يتعقبها إلى جذورها . والكلام نوعان ، ما يصف العالم الخارجى ، وما ينصرف إلى داخل النفس،، الأول يُلزم صاحبه الإثبات ، والثانى مما يرد فى التعبير الفنى والشعورى لا يجوز فيه اختلاف .

وبين الشخوص الثلاثة التى يعرض د . زكى نجيب محمود ذاته فى روايته الذاتية من خلالهم تشابه ، فلدى رياض وحسام اهتمام بتتبع المذاهب الفكرية العامة فى الفلسفة والنقد والفن والسياسة والاجتماع ، وجنوح نحو التجريد فى الفكر ، ويعجزان عن التماس طريقهما فى الحياة العملية .

وبين رياض ومصطفى شبه فى المزاج يتصف بنزوع نحو الثورة الفكرية ، وفى مزاجهما أن يخضعا أشخاصهما لإرادتهما فى شئ من القسوة ، فالفرد فيهما قوى ، والمواطن ضعيف .

وهؤلاء الثلاثة التقوا عند أساس واحد ، هو التعلق بالبعيد المحال .

ومن أحاديثهم بعضهم مع بعض ندرك مدى الصلة التى تربط بينهم ، يقول حسام لرياض : « لم يعد لنا بد أن نكون كالجانبين من الشخص الواحد . هذا يعارض ذاك أو يوافقه ، لكنهما متصلان . لا ينفصلان » .

ويقول رياض لحسام : « الصلة بينى وبينك لم تعد صلة بين رجلين بقدر ما هى صلة بين جانبين فى رجل واحد » .

ويقول حسام عن مصطفى مبيناً شعوره نحوه : « أحسست أنه ذو طبيعة أقرب إلى طبيعتى فلوكان لى أخ شقيق لكان هو مصطفى » .

وتتضح معالم هؤلاء الشخوص الثلاثة بعد ذلك . فحسام أخلاق وقواعد ، ومصطفى عقل ومنطق ، ورياض عاطفة وانفعال .

الأول مقيد بالواقع كما يقع ومرفأه موروث التقاليد .

والثانى مقيد باللفظ ، وما يعنى ولا يعنى ، ومرفؤه منطق العقل .

والثالث خيالى يحطم الواقع ولا يتقيد بقيود اللفظ ومعانيه ، ونزوات شعوره أعصى من أن يقيدها قيد .

أنفس ثلاث يكمل بعضها بعضاً فى وحدة ملتئمة ، نفس أمارة كتلة من وجدان ثائر يندفع

مع نزواته وأهوائه ، وميوله ورغباته ، ونفس لوامة ، حكمة بلا عمل ، وفكر بلا إرادة ، وتخطيط بغير تنفيذ ، ونفس مطمئنة ، ما حكم به العقل لها كان ، وما رفضه رفضته .

وهذه الأنفس هى جوانب شخصية صاحب رواية السيرة الذاتية التى أطلق عليها « قصة نفس » .

كشف لنا فيها د . زكى نجيب محمود فى صراحة وجلاء أعماقه نفسه .

وذلك عبر نهج جديد فى فن السيرة الذاتية ، قوامه المحاور التى تدور حولها نفسه ، وكما يعترف هو بنصه يقول : « ضلال ليس بعده ضلال فى فهمنا لأنفسنا وفهمنا للناس ، أن نلتمس محوراً واحداً ندير حوله أحوال النفس جميعاً » .



سبعون .. ميخائيل نعيمة

يقول الأديب المفكر « ميخائيل نعيمة » (١٨٨٩ م) : « إذا سألتنى كيف الوصول إلى معرفة « أنا » .. فأقول لك : بالتفكير والتأمل » .

وبالتفكير والتأمل فى حياته ، يدون سيرته الذاتية التى أطلق عليها « سبعون » (١٩٦٢ م) ، لتعبر عن « حكاية عمر » فى ثلاثة أجزاء . قسمها إلى ثلاث مراحل .

الأولى من عام ١٨٨٩ م إلى ١٩١١ م ، وفيها يصف طفولته ، ومطلع شبابه ؛ وتمتد فى مساحة مكانية من لبنان إلى روسيا ، حتى عودته إلى موطنه .

والثانية من عام ١٩١١ م إلى ١٩٣٢ م ، حيث برح لبنان إلى أمريكا .

والثالثة من عام ١٩٣٢ م إلى ١٩٥٩ م ، حيث ألقى عصا الترحال فى لبنان .

وبذلك تنطوى سبعون عاماً ممتدة من ١٨٨٩ م إلى ١٩٥٩ م فى الأجزاء الثلاثة من سيرته .

وترجمة حياة « ميخائيل نعيمة » تتسم بالصراحة ، والصدق ، مما يجعلها حرية بالتميز على ما عداها من السير الذاتية العربية .

فهو لم يهرب من وضع حقائق حياته كما عاشها ، مهما كانت مرارة ذكرها على النفس أحياناً ، وغاص فى أعماقه مسترجعاً انفعالاته ، وما صادفه من تحولات وتقلبات عاطفية .

فلا يتردد فى ذكر بعض ميوله التى جمحت به ردحاً من الزمن ، وانصاع لها ، ويفصح عن

تأثير الغرام والهوى على وجدانه . وكيف ارتفع سلطانه فوق سلطان مثله العليا دون محاولة أن يظهر فى صورة من وأد شهواته دون مقاومة ، وأعلى صوت العفة فى هوادة .

وسيرته مزيج من السرد ، واليوميات ، التى خطها فى روسيا بالروسية تقليداً ليوميات « نيكيتن » الكاتب الروسى ، وأخرى كتبها فى أمريكا ، ورسائل تبادلها مع الأصدقاء والقراء .

وقد وعى « ميخائيل نعيمة » طفولته الباكرة ، فإذا هو عضو فى أسرة ، عائلها « الغائب » فى أمريكا سعياً وراء الرزق .

ويصف فى تأنٍ وتعاطف وإسهاب البيئة التى شهدت مسقط رأسه ، حيث جبل صنين ببيروت ، و « الشخروب » الصخرى يحيط بقريته « بسكنتا » .

ويتعلم فى المدرسة الأرثوذكسية الفرنسية والعربية ، ثم ينتقل إلى المدرسة الروسية التى يتفوق فيها على أنداده فيسافر إلى روسيا ليستكمل دراسته .

وفى باكورة عمره يكون له مع الموت وقفة تأمل ، كأغلب أدبائنا فى سيرهم الذاتية . إذ بعد موت خاله يقول : « لقد هالنى من الموت أن يكون له ذلك السلطان على الناس . ماداموا يعرفون أن كل حى للموت .. فما بالهم كلما مات حى من أحبائهم ينكشون الشعور ، ويلطمون الخدود ، ويمزقون الثياب » (ص ٩٤ جـ ١ ط ٢) .

وعندما يموت أخوه يتحدث بمرارة عن « التقاليد السمجة ، القاسية الكافرة ، التى ترافق الموت » (جـ ٣ ط ٢ ص ٨٤) .

وعندما يترك موطنه مسافراً وحيداً ، يحس بالغربة ، التى يقول عنها : « هـذا الشعـور بالغربة ما انفك ينشط ويزداد على مر السنين ، حتى بتّ أعيش فى عالمين . عالم خلقته من تعسى لنفسى . وعالم خلقه الناس للناس . والعـالمان يتجـاوران فى حياتـى . ولـكنهما لا يتزاوجان » .

ويقف عند مراهقته متناولاً أثر الجنس فى هذا الطور من حياته : « ما ان نبلغ سن المراهقة حتى تجدنا فى صراع لا أمر ولا أقسى منه مع الطبيعة .. إنها فى لحمنا ودمنا ، بل هى لحمنا ودمنا ... لقد عانيت فى كبح عاطفتى الجنسية الشئ الكثير . ولم استسلم لها إلا فى فترات حياتى .. » . وبهذه الاعترافات يضيف جديداً فى مدى المصارحة عند عرضه لسيرته دون

مواربة .

وعن الاستسلام للجنس فى المراهقة يقول « برتراندرسل » فى « سيرته الذاتية » : « لما بلغت الخامسة عشرة من عمرى اجتاحتنى مشاعر الجنس ولم أقو على احتمالها .. وتولدت عندى العادة السرية وظللت أمارسها حتى العشرين .. »

ويعترف دون تخفٍ ، « ميخائيل نعيمة » ، بشهواته التى تغلب عليها ، وهى السلطان ، والغنى ، والنساء ، والشهرة ، والخلود ؛ ولكن لم يستطع أن يتغلب تماماً على شهوة الخلود لأن الذى يقصده خلود الروح لا الجسد .

ويجرب قلمه فى اللغة الروسية كتابة فى القصة والمسرحية متمنياً أن يكون كاتباً أديباً ، فزاده هذا الميل والممارسة رغبة فى القراءة والاطلاع ، ويهتف من أعماقه « إنى أريد أن أكون كاتباً له شأنه بين الكتاب » .

ويقول « سومرست موم » فى سيرته الذاتيه : « كنت شديد الطموح لكى يلمع اسمى ككاتب ، وعرضت نفسى لمختلف التجارب ، كنت أقرأ كل شئ يقع بين يدى » .

ويعود « ميخائيل نعيمة » إلى لبنان ويمكث فترة ، ثم يرحل إلى أمريكا ، ويلتحق بالجامعة ليدرس الآداب والحقوق .

وعندما يشتد احساسه بالغربة يجد سلواه فى القراءة ، وتكون فاتحة اتصاله بالكتابة يوم أن وصلته فى نيسان (ابريل) ١٩١٣ م ، مجلة « الفنون » . فأرسل اليها مقالاً بعنوان : « فجر الأمل بعد ليل اليأس » ، ونقد قصة « جبران » ، « الأجنحة المتكسرة » ، وكان هذا أول ما نشر له بالعربية ، ثم صار مرموق الذكر بين أدباء المهجر بأمريكا .

وفى الحرب العالمية الأولى يجند فى الجيش الأمريكى ، وينقل إلى فرنسا ، ويسرح من الجيش ، فيلتحق بالسربون .

ثم يعود إلى أمريكا ، وينضم إلى « الرابطة القلمية » فى عام ١٩٢٠ م .

وتتحقق شهرته بين قراء الإنجليزية يوم أن نشرت له « التايمز » قصيدة .

وقد لعبت المرأة فى حياة « ميخائيل نعيمة » دوراً هاماً ، ولم تنقطع صلته بها على أى صورة من الصور .

وعرض لذلك فى صراحة كشفت عن مكنونات نفسه ، وعواطفه دون مداجاة أو ادعاء .

كان لقاؤه بالمرأة لأول مرة فى حياته مصحوباً بملابسات جعلته يشعر بأنه موضع إعجابها ، وأنها تسعى إليه دون أن يسعى هو إليها .

ويلازمه هذا الإحساس إزاء كل إمرأة يعرفها سواء أكان ذلك فى لبنان أم روسيا أم أمريكا .

فلقاؤه الأول كان فى القطار وهو مسافر إلى روسيا حيث تعرفت عليه فتاتان لبنانيتان ، أخبرهما أخوهما أنه « ميخائيل نعيمة » الذى وقع عليه الاختيار لتفوقه ليسافر إلى روسيا . ونجم عن تعرفه بهما ما جعله يقول عنهما بعد أن فارقاه فى القطار : « لقد أحسست أننى كالمسافر فى قفر موحش ينبت له فجأة رفيق فيبدد وحشته ... إنهما أيقظتا حاجة هاجعة فى كيانى إلى مخالطة الجنس اللطيف ولو مخالطة بريئة » .

ونفس هذا الشعور عاوده عندما حضر سهرة « عوالم » وشاهد الراقصات . فلما غادر المكان أحس فراغاً ووحشة كالتى أحسها وهو يودع الفتاتين .

ويتعرف هو وصديقه « اليوشا » على فتاتين ، ويخرجون جميعاً فى نزهة ، واشترطت الفتاتان أن يتصرفا معاً « دون حياء ودون تكلف » .

واستلقى « ميخائيل نعيمة » مع فتاته على العشب ، وتحرك فى نفسه صراع لانفراده بفتاة على استعداد للاستجابة له . ولكن صوتاً فى أعماقه ناداه « لتكن عفتك أقوى من شهوتك » .

ثم عرفه صديقه « اليوشا » بشقيقته « فاريا » وزوجها « كوتيا » ولم يكونا على وفاق ، وتمرض « فاريا » . وتصرح « لميخائيل نعيمة » بحبها له منذ أن سمعت عنه من أخيها ، كما حدث لصديقتيه بالقطار . وكان اعترافها فى غرفة ضيقة ، يضيئها مصباح أحمر .. وطوقته بذراعها ، وراحت تقبله .

ولما عاد إلى « بولتافا » لحقت به ، وبثته هواها ، وقبلاتها ، ولكنه كبح شهواته ، وقرر التخلص منها .

ثم تعرف عن طريق « ليدا » ابنة أستاذه ، على عائلة عمها ، فعرف « ماروسيا » التلميذة التى أحبته وأحبها فى طهارتها ، وبادلها القبلات ، وعاشا فترة فى أحلام الحب .

ولكن « اليوشا » دعا « ميخائيل نعيمة » ليقيم معه ، فلبى ، والتقى ثانية « بفاريا »

فاسترجعا ذكريات حبهما ، واستسلم لإرادتها بعد أن خدر ضميره بالأعذار التى تبرر سلوكه .

ويعقب « ميخائيل نعيمة » على تلك الفترة من حياته الممتدة من **١٨٨٩** إلى **١٩١١** م بقوله : « إنها تلك الفترة التى سلبتنى طهارة الشباب لتعوضنى عنها خبرة كنت فى أمس الحاجة إليها . لقد عرفت المرأة بلحمها ودمها ، وولجت قلبها . والرجل الذى لا يعرف قلب المرأة لا يعرف قلبه » .

وفى فرنسا تعرف « بمادلين » ، وفى نزهة لهما معاً كاد صوت الشهوة أن يطغى على عقله ولكن « الإنسان فىّ مرة أخرى انتصر على الحيوان » .

وعندما عاد إلى أمريكا تعرف بـ « بيلا » وزوجها « هارى » فأحس بأن بينهما ما كان بين « فاريا » و « كوتيا » « ههنا كذلك رجل وامرأة لا يجمع بينهما أى جامع » .

وتكون نتيجة علاقته « ببيلا » أن « دم الشباب يغلى فى عروقى ويفور فلا تستطيع أى اعتبارات أن تحد منه » .

ودامت العلاقة خمس سنوات . وتعرف بـ « نيونيا » البولندية التى رأى فيها « عالماً يضج بالشهوة .. »

وتتنوع علاقاته بالمرأة ، مما يبرهن على تعلقه بها ، ولعلنا نتساءل لماذا لم يتزوج واحدة منهن ؟.. فيجيب : « تبين لى من علاقاتى مع النساء أننى لم أولد لأكون بعلاً لإمرأة ، وأباً لعدد من البنات والبنين . فعملى فى حياتى هو أكثر من تجديد النسل الذى يقوم به الملايين من الناس » .

وفى عام **١٩٣٢** م ضاق صدره بأمريكا ، وتعطش للهدوء ، والبساطة ، فعاد إلى لبنان « فكأنما الحنين إلى المصدر سُنة من سنن الطبيعة » .

وفى موطن مولده ، حيث أطلق عليه « ناسك الشحروب » اعتاد أن يسترجع أحداث حياته و « غربلة ما حملتيه من شتى الانطباعات والذكريات والمشاعر والأفكار ، والهواجس والوساوس » .

يتأملها ويفكر فيها ، عله يجد تفسيراً لبعض ما مر به ، وعله يصل إلى حكمة الوجود . إذ هل تكفى الحياة الواحدة ليعرف الإنسان وتتطهر روحه على الأرض بقداسة المعرفة وشرف

التجربة ؟ يقول : « إن حياة الإنسان لا تبتدئ في المهد ولا تنتهي في اللحد . وإن كل إنسان على وجه الأرض اليوم كان إنساناً قبل اليوم على هذه الأرض فمات وعاد إليها ثم مات وعاد اليها . إلى أن يتغلب على الشر الصادر عن الجهل . وإذ ذاك لا يبقى له من حاجة إلى الأرض وحياتها . فالحياة الأرضية بمثابة مدرسة ليست مدة الحياة المعلومة كافية لإنهائها . والأستاذ الأكبر في هذه المدرسة هو الاختبار الشخصي » .

ونردف بتساؤل .. بعد رحلة « ميخائيل نعيمة » في سنواته السبعين .. هل عرف نفسه ؟. يقول : « إنك عندما تسأل نفسك « من أنا » ؟ تحدد لحياتك غاية ما أرفع ولا أجمل ولا أنبل منها غاية . ألا وهي الإجابة على ذلك السؤال . ولأن « أنا » مرتبطة بكل ما ظهر وما خفي من الكون . فمعرفتك « أنا » هذه هي المعرفة القصوى ، معرفة الكون » (جـ ٢ ط ٢ ص ٣١١) .

ونفس هذا المعنى يسوقه « العقاد » حينما يسأل نفسه : « وهل يعرف الإنسان نفسه ؟.. كلا بغير تردد فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شئ في الأرض والسماء وفي الجهر والخفاء . ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء » .

والإنسان يعرف نفسه على التخمين وليس بالتحقيق . وانه كثيراً ما يكون في تخمينه عنها غريباً يبحث عن سر غريب .

ولا نكران أن « ميخائيل نعيمة » قد طرق في سيرته الذاتية « سبعون » أبواباً لم يطرقها أدباء من قبله في سيرهم بنفس الوضوح والصراحة بفضل التفكير والتأمل لمعرفة « أنا » التي تجسد حياته طولاً وعرضاً ، ظاهراً وباطناً .

* * *

رحلة حياة .. الدكتور حسين فوزي

يعرض الدكتور الطبيب ، العالم ، الأديب حسين فوزى (١٩٠٠ م) فى سيرته الذاتية المعنونة « سندباد فى رحلة حياة » .. رحلة إنسان إلى الحضارة فى « الزمان » .. و « المكان » . حيث تتمثل حضارة الزمان فى الشرق .. وحضارة المكان فى الغرب .. « هنا » فى شرقنا .. الزمان التاريخى للحضارات .. و « هناك » المكان المعاصر للحضارات . فالماضية يسترجعها ، والحاضرة يعيشها فى « رحلة حول نفسه » (ص ٢٠٢) التى هى سيرة تربيته ، وثقافته ، وتفتح عقله ووجدانه حتى استوعب الحضارات ماضيها وحاضرها ، واستشرف مستقبلها .

بدأ د . حسين فوزى كتابة سلسلة مقالات فى ثلاثينيات هذا القرن (العشرين) فى مجلة « مجلتى » ثم جمعها فى كتابه « سندباد عصرى » (١٩٣٧ م) .. وكتب سلسلة أخرى فى مجلة « الكاتب المصرى » وطواها مجتمعة فى كتابه « سندباد إلى الغرب » .. ومنذ ذلك الحين وهو حريص على أن يبسط أمام القارئ « صور من حياتى فى دنيا الحضارة » (ص ١٥٦) على حد تعبيره .

وسيرة الدكتور حسين فوزى فى « سندباد فى رحلة حياة » تجمع بين الذكريات والمذكرات . فالذكريات تعتمد على استعادة صدى الأحداث فى النفس دون التقيد بمدونات وموثقات ... والمذكرات يُستند فيها على المسجلات فى حينها أو الموثقات حولها .

ومذكرات وذكريات الدكتور حسين فوزى نشرت كلها فى تتابع مقالات بعدد ملحق الجمعة

الأسبوعى من جريدة « الأهرام » القاهرية .. على امتداد زمنى من أعوام ٦٥ ، ٦٦ ، ١٩٦٧ م . ثم لم شملها ، وأصدرها مجتمعة فى سلسلة كتب « اقرأ » التى تصدر عن دار المعارف للنشر بالقاهرة فى يونيه عام ١٩٦٨ .

وفيها يصاحب الدكتور حسين فوزى وقدراته وملكاته الفنية والأدبية تتفتح فى طفولته المبكرة . فيقبل على إشباع استعداداته الخبيئة بالرسم والتصوير والاستماع إلى الموسيقى بكشك حديقة الأزبكية وسط القاهرة . ويقرأ لأعلام الأدب العربى والأوربى .

وتتسع قراءاته ، وتتنوع اطلاعاته فيُستثار شغفاً بالثقافة بصفة عامة ، والإحاطة بالحضارة الغربية بصفة خاصة .

ويجمل هذا الاتجاه فى عرضه للأدوار التى اجتازها كواحد من أبناء جيله فيقول : « حفظنا القرآن الكريم أطفالاً ، فقوم ألسنتنا ، وأرهف حسنا بجمال العربية وروعتها . وتنشأنا على الأدب العربى تنشئة طيبة مراهقين وشباباً . ولكن تكويننا روحياً وعقلياً نما واكتمل فى دنيا الأدب الأوربي » (ص ٥٦) » .

وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ م المصرية ، يلتقى بمجموعة أصدقاء عاشوا مثل تجربته فى القراءة والتثقيف مثل محمد رشيد وحسن محمود ، ومحمد طاهر راشد ، وأطلقوا على أنفسهم « المدرسة الحديثة » . فكانت مدرسة رواد ثورة فنية وأدبية . وكانوا ينزعون نحو التجديد شكلاً ومضموناً . ولم يكن ميلهم إلى الغرب وليد « عقدة خواجة ، وإنما هو الإيمان بكل ما هو عظيم ، وصادق وجميل فى الحياة » (ص ٨٦) .

وحديث الدكتور حسين فوزى عن هذه الصحبة ، يذكرنا بما يسجله أحمد أمين عام ١٩١٤ م ، وقد تخرج من المدرسة العليا فى صحبة نخبة من طلبة ممتازين صادقهم ووطد أواصر العلاقة بينه وبينهم ، ومنهم أحمد زكى ومحمد عبد الواحد خلاف ومحمد كامل سليم ، وفريد أبو حديد . وكانت ثقافتهم عصرية . ويجتمعون للحوار والمناقشة فى قهوة بميدان عابدين .

ويتناولون موضوعات متنوعة بذهن متفتح لأن كلاً منهم كانت له هوايته الثقافية .

وكانت جماعة د . حسين فوزى تجتمع فى قهوة « راديوم » بشارع عماد الدين فى القاهرة ، وعند قهوة « صالح الشربتلى » بباب الخلق ، وفى « الكلوب المصرى » بالحسين .

وقد كان لأصدقاء أحمد أمين والدكتور حسين فوزى أثرهم فى إثراء حياتنا الفكرية والأدبية والفنية .

ولا يمل الدكتور حسين فوزى من استخراج مدلول ثورة ١٩١٩ م وأثرها فى « رحلة حياته » .. فهى ثورة أدت إلى « التحرر الذهنى » (ص ٩٩) . لأنها فتحت الأذهان ، ونبهت العقول إلى ما يدور فى أوربا .. كما أن عام ١٩١٩ م كان « عام القراءة الأدبية المستفيضة ودراسة الموسيقى » .. كما كان لثورة ١٩١٩ م أثرها فيا أعقبها من تغيرات : « لا شك أن السنوات التى جاءت في أعقاب ثورة ١٩ كانت فترة تقدم وتطور . فلقد استطاعت الروح المصرية المشرئبة إلى التحرر والتطور ، أن تتقدم خطوات فى طريق استقلال غير ملفق » .

وامتد ذلك إلى الفكر والأدب والفنون .

والتحق الدكتور حسين فوزى بمدرسة الطب عام ١٩١٧ م ، وتخرج عام ١٩٢٣ م ثم مارس حياته العملية ، طبيباً للعيون عامين . وما لبث أن قرر أن المقلة وحدها لا تشبع رغباته ، ونزعاته . ومن ثمة أقبل على دراسة علوم البحار : « ولا تفسير عندى لهذا القرار أكثر من الرغبة العارمة فى العلم والمعرفة والتشويق الشديد إلى ورود ينابيع الحضارة الأوربية التى نشأت كلفاً بها » (ص ١١١) .

وبإحساس بالظمأ إلى الارتواء من المعارف الموسوعية عاش فى أوربا محاولاً أن يرتوى من العلم والفن أو المعرفة والأدب والفنون . فهو أمام البحر يقول : « أحسست لأول مرة ، أنا ابن دروب القاهرة القديمة ، الذى لم ير البحر قبل سن العشرين ، وكأننى خُلقت للبحر وحياة البحر ودراسة البحر » (ص ١٥٢) .

وما أكثر ما يتعلم الإنسان من البحر ، يقول « ميخائيل نعيمة » فى سيرته الذاتية « سبعون » : « أما البحر فعلمنى أن الحياة متلاصقة بعضها ببعض تلاصق القطرة بالقطرة والموجة بالموجة .. وأن ما يتصارع على وجهه من الموج يصرع أبداً ذاته » (جـ ٣ ص ٤٣) .

وفى باريس ينفذ منهج الثقافة الشاملة ، أو التربية المتكاملة ، كما عند « توفيق الحكيم » فى « زهرة العمر » . فالدكتور حسين فوزى يزور المتاحف ، ويتجول فى شوارع باريس ، ويحضر

حفلات « السيموفونيات » ، ويشاهد المسرحيات ، ويقرأ ، ويقرأ . فحقق « التوازن الثقافى » فى حياته فى إطار يجمع بين دراسة الطب وعلوم البحار ، والهوايات .

وهذا ما ظل « سومرست موم » يسعى دؤوباً نحوه ويقـول : « لـم تكن مهنـة الطـب تستهوينى ، ولكنها أتاحت لى من تجارب الحياة ما كنت أرجو ... وكنت أنفق الكثير من وقت فراغى فى القراءة والكتابة .. خواطر .. وأفكار .. » (ص ٣٦) .

ويلقى الدكتور حسين فوزى نظرة شاملة على « رحلة حياته » .. فيعقب بقوله : « قـد يتعجب القارئ من تنوع الحياة التى عاشها هذا الإنسان الضعيف متنقلاً بين الطب والعلم ، مع كلفه بالفن والأدب » (ص ٢٠٩) .

ويفسر محافظته على التوازن بين العلم والفنون بأن سره يكمن فى « قوة إرادته » .. والآن لم يعد يشغله إحداث هذا التوازن اذ يفصح بأنه : « لم يعد الانتقال من الفن إلى العلم أشبه بالعودة من جو الحرية الطليق إلى القشلاق حيث النظام والواجب ، إذ تحولت حياتى من تلك اللحظة إلى هيام متكامل » (ص ١٥٣) .

وبعد رحلة مديدة متجددة الصفحات يقول الدكتور حسين فوزى : « ليس الهدف من هذه الصحائف تاريخ حياة فرد بعينه ، وإنما تصوير للظروف التـى نشـأ فيهـا جيلنـا كلـه » (ص ٩٢) .

وإن أشار إلى نفسه أنه صاحب الترجمة (ص ٢٠٩) إلا أنه يفصح أنه « لا أكتب هنا ترجمة شخصية ، بقدر ما أسجل لمحات عاجلة من رحلة الحياة . أزعم أو آمل أن يجد فيها القراء مأرباً » (ص ١٤٦) . فهى سير ذاتية ، وصورة شخصية تضم « صوراً من حياتى الغابرة » (ص ١٦) . اختار فيها ما رآه حاسماً فى حياته ، وقدمها لتجد فيها الأجيال دروساً وعبرة ، وهى سير ذاتية قمينة أن تحقق ما أراده لها صاحبها من جدوى .

❊ ❊ ❊

ذكريات .. الدكتور السيد أبو النجا

الدكتور السيد أبو النجا واحد من رجال الادارة الذين برزوا فى مجال العلوم الإدارية ومن روادها فى العالم العربى .

وتنقل فى كثير من المناصب والمراكز التى مكنته من الاتصال بالأدب والأدباء ، وحذق صناعة الكتب وتسويقها حينما صار رئيساً لمؤسسة « دار المعارف » بالقاهرة .

وكان لا مناص من أن يقدم للقراء سيرته الذاتية فى سلسلة « اقرأ » عدد أكتوبر عام ١٩٧١ م .

وسيرته الذاتية يطلق عليها « ذكريات عاريةِ » ليؤكد أنه يقدم للقارىء حياته دون مواربة ، أو زيف أو هروب من الاعتراف بكل دقائقها .

ويبدأها بتقديم طفولته منذ أن غادر قريته إلى القاهرة ، حيث التحق بالمدرسة ، وارتدى البدلة لأول مرة فى حياته .

وكان يستذكر دروسه فى الأزهر لقربه من مسكنه . وأظهر تفوقاً بفضل ما حصله فى كُتاب القرية من علم .

ويصور حياته اليومية مع زوجة أبيه ، ومستوى المعيشة الضنك من دخل والده .

ويصف حى الأزهر باعتباره بيئة اجتماعية وسياسية طبعت فى ذاكرته صبياً ، شخوصاً وأحداثاً كان لها أثرها فى تكوين شخصيته .

وفى زهرة الصبا ينال الابتدائية ، فيلتحق بالمدرسة الخديوية ، ويشارك فى المظاهرات السياسية ..

ويخفق فؤاده بالحب ، فيغالبه بالصلوات وممارسة الرياضة البدنية .

ثم ينتقل إلى مرحلة الشباب ، فيلتحق بمدرسة التجارة العليا ، وتكون الدراسة بها هى نقطة التحول فى حياته، وعندماتخرج عمل مدرساً . ثم أرسل فى بعثة إلى إنجلترا ، حيث سرد تجربته فى اكتساب العلم ، والتأقلم مع بيئته الإنجليزية الجديدة .

وعندما عاد إلى الوطن ، كان رائداً فى فن الإعلان فاقتحم مجالات كثيرة حقق فيها النجاح الذى جعله علماً فى « الإدارة » .

ويصادف أحداثاً تثرى خبراته ، وتوسع من آفاقه ، ويقطع من الحياة شوطاً فـ « يلقى نظرة راضية على ماضيه ، ونظرة باسمة على حاضره ، ونظرة مطمئنة إلى أيامه الباقية » ..

ولذا فالدكتور السيد أبو النجا يقدم « ذكريات عارية » بمقتضى اتفاق بينه وبين القارئ ليعرض « إنتاجاً » من ذكرياته « يشبع رغبته فى أن يسجل حياته » و« يبقى علمه مرفرفاً بعد مماته » و « أن يزيد إيمان الناس بالله » . ويقدم « نموذجاً للإنسان العادى » بالإضافة إلى « محاولة صادقة لنقد ذاتى » حتى يغلق المنافذ أمام كل مستزيد .

ويسأل المؤلف صاحب السيرة نفسه .. هل تأثر « بأيام » الدكتور طه حسين ؟.. وبدلاً من الإجابة الصريحة يمضى مستطرداً فى سرد قصة خلاف فى الرأى بينه وبين الدكتور طه حسين .

والحق أن التأثر بالدكتور طه حسين واضح ، وتقليده وصف بيئته الأزهرية فى صباه جلى . ونجم عن ذلك أنه أضفى على الأزهر فى حياته أهمية أكثر مما يستحق حيث انه لم ينخرط فيه ، ولم يخضع لتأثير أساتذته . ولو أنه أبرز دور الأزهر فى تربيته من خلال تربية والده له الأزهرى النشأة لكان ذلك أوفق .

وكان المؤلف يشير إلى نفسه بضمير الغائب ، فهو « الصبى » .. و « الشاب » و « صاحبنا » مما يتعارض مع إقراره فى أول سطور سيرته أنه يتحدث عن نفسه « ليس فى نية الكاتب ـ وهو يتحدث عن نفسه »

وقد كان لهذا مبرراته فى « أيام » الدكتور طه حسين ، و« اعترافات » عبد الرحمن شكرى

الذى يشير إلى ذاته بـ (م . ن) لأن الظروف الاجتماعية والأدبية لم تكن تهيأت بعد للاستماع إلى صوت أديب جهير يتكلم عن نفسه ، ويكشف كوامن ذاته ، أمام اليوم ...؟! .

وقد بدأ صاحب الذكريات ، سرد طفولته فى تأن وطول نفس ، ثم مضى مهرولاً فى لهوجة ، كأنه فى لهفة لإنهاء الكتاب ووضع خاتمته .

ولذا كان سرده لطفولته فى تعاطف شديد ، أما منذ رحيله إلى لندن ، وعودته منها ، فقد صارت الذكريات تقريراً رقمياً أساسه حساب المكاسب والخسائر فى الحياة .

وكان عمله فى الصحافة المصرية عبر فترة تطور هامة فى تاريخها ، ولكنه يفرد لذلك صفحات قليلة نسبياً ، وهى الجديرة هنا بكتاب مستقل يطلعنا فيه على ما كان يدور فى خفايا كواليس الصحافة المصرية ، ويظهرنا على ذاته فى خضم الصراعات .

وما سرده عن خبراته وتجاربه فى مجال الإدارة والإعلان ، لم يرتفع إلى مستوى العرض الذى يناسب القارئ مهما كان مستواه الثقافى . إذ أن أى خبرة تنطوى على عنصر إنسانى وهذا يتوقف على أسلوب العرض والتناول . والأمثلة على ذلك بينة .. فيما أخرجته سلسلة « اقرأ » ذاتها فى « سندباد فى رحلة الحياة » (١٩٦٨ م) للدكتور حسين فوزى ، و « سجين ثورة ١٩١٩ » (١٩٦٩ م) للدكتور محمد مظهر سعيد ، وكذلك « حياة طبيب » للدكتور نجيب محفوظ .

ويحاول الكاتب أن يثبت عدم اهتمامه بالسياسة منذ طفولته ، بينما قد نشأ فى الحى الذى شهد أحداثاً وطنية هامة .. حى الأزهر .. الذى كان مسرحاً لثورة ١٩١٩ .. واستمع فيه إلى خطب الزعماء ، وعلقت بذاكرته قصائد وطنية .

ويذكر أنه عند عودته إلى قريته وكان راكباً فوق ظهر حمار ، نهره فلاح وأمره بالنزول من فوق الحمار لأنه يمشى فى أرض تفتيش أحد الأمراء .. فرضخ .. وأذعن .. وأدرك فى هذه اللحظة لماذا قامت ثورة ١٩١٩ م ..

وكان أحد المحرضين لزملائه التلاميذ على ألا يقفوا لمدرسى الإنجليزية احتجاجاً .. واشترك فى أكثر من مظاهرة .. وأوذى بسببها .. ومع ذلك كله .. يقول عن المظاهرات السياسية انه « لم يكن يفهم لها هدفاً سوى أنها بديل عن الدروس » .. بينما تكشف ملاحظاته لما يدور حوله عن

يقظة حادة لوعى وطنى مبكر .

وعلى الرغم من أن صاحب السيرة أراد لها أن تكون عارية ، أى صريحة إلى أبعد الحدود .. إلا أنه يمر على طفولته مركزاً على تفوقه ، وتدينه ، وتصوفه ، أما العواطف الإنسانية ، التى هى من أهم خصائص المراهقة ، فقد تجاوزها فى يسر وسهولة . واكتفى بعرض لحب مكبوت عبر عنه بقصيدة غزلية ، تترجم وله فؤاده .

فإذا كنا فى طور الشباب ، فتكرار واستزادة من عمله فى المدارس ، وتدخينه السجائر ، وسهره إلى غير ذلك من تجارب لا يذكر تفاصيلها وإنما يتجاوزها سريعاً .

ولا تحس نبض الحياة بارتفاعها وانخفاضها ، صعودها وهبوطها .

ولكن القارئ يلهث وراء المؤلف ، وهو يقدم لفتة إنسانية خاطفة هنا ، ولمحة ذكية هناك ، ورأياً شجاعاً فى موقفٍ ما ، ووجهة نظر ناقدة لموضوع معين .

كل هذا فى هوجة سريعة عاجلة ، لتجد نفسك فى النهاية ، وأنت تأمل من صاحب الذكريات أن يتروى قليلاً ، وليواصل ذكرياته فى استفاضة ، لأن ما قدمه يشى بمخزون من التجارب والخبرات يحتاج لأكثر من كتاب ، على ألا يكون فيما يسرده متأثراً بأحد سوى ذاته ، ويبعد عن قلمه تقليد « أيام » الدكتور طه حسين حتى يتوفر للسيرة الذاتية من خلال ذكرياته اعترافات لا تردد فيها ولا تهرب من مواجهة مكنونات النفس .

❋ ❋ ❋

السيرة الذاتية بين المقالة والرواية

بعض الأدباء العرب اكتفوا بتسجيل صور من حياتهم فى مقالات ، أو نسجوها فى روايات السيرة الذاتية ، فأثروا ذلك النتاج الأدبى بما أضافوه إلى ألوان أدب السيرة الذاتية .

ومن هؤلاء « أمين الريحانى » (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠ م) الذى كشف عن شخصيته منذ طفولته ، وأفصح عن آرائه فى الحياة والناس فى كتابه « الريحانيات » الذى يعرض : « شخصية أمين كاملة فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة » فيما يقول « مارون عبود » وسجل تاريخ حياته بالإنجليزية فى رواية « خالد » الذى هو البطل نفسه مؤلفها .

واعتاد « أحمد حسن الزيات » (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨ م) أن يطالع قراء « الرسالة » (١٩٣٣ م) بمقالات يسرد فيها ذكرياته مثل « من مذكراتى اليومية » أو « مذكرات يومية » و « من ذكريات الطفولة » .. ويمكن القول إن مقالاته فى « الرسالة » أشبه ما تكون بتسجيل انطباعات يوم من أيام الأسبوع على مدى صدور مجلة « الرسالة » التى ذاعت فى العالم العربى حتى عام ١٩٥٣ م .

ويعبر الأديب القصاص محمود تيمور (١٨٩٤ م) فى مجموعة مقالات عن جوانب من سيرته بالإضافة إلى رواية يتناول فيها تجربة شخصية اجتازها . كما فى الفصل الأول من « شفاء الروح » .. ومقال تصدير مجموعة قصص « فرعون الصغير » الذى يحدد فيه معالم بارزة للخطوات الأساسية فى تطور حياته الأدبية ، وجعل عنوانه : « المصادر التى الهمتنى

الكتابة » .. فتحدث عن بيئته ، والظروف التى أحاطت بنشأته الأولى ، ويقرر « أن الكاتب إذ يدعى أنه أقل الناس تحدثاً عن نفسه ، نراه أكثرهم ثرثرة وإفشاء لأكتم أسراره ، فكل ما يخطه قلمه صحائف ناصعة يترجم بها عن إحساساته وميوله ، ورغبات نفسه ، ودفائنها ، بيد أن الكاتب فى عمله الأدبى يتحدث عن نفسه وهو لا يدرى أنه يفعل » .

ويقيم « محمود تيمور » نسيج روايته « نداء المجهول » على تجربة شخصية له ، محورها شوق النفس إلى المجهول ، والمؤلف هو الراوى نفسه . ويفصح عن تطلع النفس إلى الخبيئ ، ومعاناتها فى سبيل الكشف عنه ، ثم خيبة الأمل ، وقد صرح المؤلف فى مقال نشر بجريدة « الأخبار » القاهرية (١٩٦٨/١/١٤ م) أنه عاش تجربة تلك الرواية ، واتصل بأحداثها الرئيسية أثناء رحلة صحراوية .

زينب .. الدكتور محمد حسين هيكل

والدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م) يعبر فى رواية « زينب » (١٩١٤ م) التى ألفها عن أفكار وخواطر وآمال شاب مصرى نال قدراً كبيراً من الثقافة مكنه أن يسترجع بفهم واعٍ صوراً مرت به فى أحضان الريف المصرى حيث نشأ ، واختزنها فى ذاكرته ، وأفعمت وجدانه فى باكورة العمر ، وارتبطت بأمور كان لها وقعها العميق فى نفسه ، فاستلهم منها روايته التى بدأ كتابتها وهو فى باريس أثناء دراسته للدكتوراة من ابريل ١٩١٠ إلى مارس ١٩١١ م ونشرها بتوقيع « مصرى فلاح » . واتخذ من وصفه ريف مصر وأخلاق أهله مجالاً يترجم فيه لذاته فى مرحلة من حياته .

ولذا جاءت « زينب » فيما ينص « هيكل » « تمثل شبابى تمثيلاً صحيحاً ... وهى ثمرة الصبا بما للصبا وللشباب من قوة وضعف وتوثب واندفاع وشعور سام لا يحده مدى .. » ..

ومن المحقق أن أدب السيرة هو الذى لقى هوى فى نفس « هيكل » إذ اطلع على « اعترافات » « جان جاك روسو » الفيلسوف الفرنسى ، فنقلها ترجمة بتصرف إلى العربية .

وقد تأثر به فى « زينب » التى تعد من الأعمال الناضجة من الناحية الفنية فى روايات السيرة الذاتية .

كما أن إحساسه بأنه يقدم عملاً أكثر جدية وأصالة يتجاوز روايات التسلية والترفيه التى كانت سائدة فى عصره ، دفعه إلى رفض تسميتها رواية .

ومن الجلى أن أعمال « هيكل » فى تنوعها امتداد لتنوع ألوان فن السيرة الذاتية . فكتب المذكرات واليوميات والسير ، مثل « عشرة أيام فى السودان » (١٩٢٥ م) و « مذكرات فى السياسة المصرية » ، كما أن عرضه لمذكرات رحلاته أدى به إلى كتابه « فى منزل الوحى » (١٩٣٧ م) .

وشغفه بالسير الذاتية ، حدا به أن يقدم كثيراً من التراجم مثل « تراجم مصرية وغربية » (١٩٢٩ م) و « حياة محمد » (١٩٣٥) ، و « الصديق أبو بكر » (١٩٤٢ م) ، و « الفاروق عمر » (١٩٤٥ م) ، و « عثمان بن عفان » (١٩٦٤ م) .

وأسلوب « زينب » يتنوع بين « الرسائل » و « المذكرات » و « الاعترافات » .. وهى زاخرة بالصور التى تكشف هموم شباب جيله فى مطلع القرن العشرين . وتجهر بوجهة نظره فى كثير من الأمور التى كانت تقع من حوله . كما تمثل معاناة « حامد » بطل الرواية ، والذى هو المؤلف نفسه ، وقد اتخذ هيكل أنموذجاً لشباب عصره ، وهو يصور لنا تمزقه أولاً بين خضوعه للتقاليد ، وبين رغبته فى التحرر منها « فيما يرى الأديب الروائى يحيى حقى فى كتابه « فجر القصة المصرية » (ص ٤٨) .

فهو يطوى لواعج هواه فى صدره ولا يجرؤ على البوح بالمكنون فى الفؤاد « ما كان ليقدر على اطلاع غيره على حبه ، وهو يعلم ما تكنه النفس المصرية لذلك الإحساس من الضحك والاستهزاء به » .

وترتفع نبرة المؤلف مدافعاً عن حق الشباب فى الحب « تلك السن التى لا يستطيع الإنسان فيها أن يمنع نفسه خواطر الحب وهواجس العشق » .

وتحفل « زينب » بتأملات فى بعض ظواهر المجتمع فيفرد لها صفحات (ص ١٣١ وما بعدها) .

ويفضى بقلقه على الفلاح ، وما يكابده من شقاء ، وقد أمكنه أن يتوارى خلف سطور هذه القصة حتى لا يصدم بمقاومة المجتمع لجرأته وصراحته فى مواجهة حقائق نفسه ، ولذا كانت « زينب » معبرة عن هموم مؤلفها ، عارضة لبيئة فى مرحلة من مراحل حياته .

هموم .. الدكتور عبد الرحمن بدوي

والأديب الفيلسوف « عبد الرحمن بدوى » ينسج فى روايته الذاتية المعنونة : « هموم الشباب » .. قلقه الفكرى والنفسى فى فترة عاشها وعانى فيها المتاعب حيال ما كان سائداً .

وهو يحاول أن يبعد عن نفسه مظنة أن يكون هو نفسه بطل « هموم الشباب » .

ولذا يبدأ مقدمته بقوله : « كل محاولة للربط أو المقارنة بين بطل هذا الكتاب وبين مؤلفه مصيرها الإخفاق الشنيع »

فإذا ما أوغل القارئ فى الاطلاع على الهموم أيقن أن مثل هذا النوع من الهموم ، والتفطن لها ، والإحساس بعمقها على هذا النحو لا يمكن أن يعانيه إلا شاب تطلعت آفاقه فى مطلع حياته إلى دراسة الفلسفة والنظر إلى الوجود من خلالها . ومن سواه يمكن أن تمر فترة من حياته يقول عنها « صرت أحيا كل شئ بواسطة الكتب ، ولا أستطيع أن أحيا بنفسى ... لا أكاد أعبر عن أى شعور لدى إلا مقروناً بفقرات طويلة لمؤلفين » .

ثم انها هذه الهموم التى تدور حول هموم واحدة من بنات الهوى أكثر مما تدور حول المؤلف ذاته الذى يعرض لنا الواناً من الاعترافات واليوميات يصب فيها هموم الآخرين التى تثير همومه شخصياً .

وعلى الرغم من التهويل الذى يزف فيه المؤلف إلى القارئ ما هو مقدم على الاعتراف به إلا أنك تجد أن ما عاناه ليس من الأمور التى تحتاج إلى التخفى أو إثارتها على هذا الوجه الصاخب كأنها بالونة « ميتافيزيقية » لا تصمد لأى شكة هينة من رأس دبوس صغير عند خضوعها للتحليل العقلى .

❊ ❊ ❊

ألوان من السِّيَر الذاتيَّة

تمثل بعض السير الذاتية فى أدبنا العربى خصائص مشتركة . منها أن يعرض كتابها سيرهم من خلال معاناتهم لأمراض وعلل جسمانية ينتصرون عليها .. أو يعرضها أصحاب مهن مختلفة كالطب أو الفن . أو تعبر عن فلسفة يستخلصها الكاتب فى سيرته أو دوره السياسى الذى شارك فيه ، أو ممارسته للكتابة الصحفية .

قيود .. صبحي الجيار

ففى ثلاثة أجزاء يسرد الأديب « صبحى الجيار » (١٩٢٧ م) سيرته الذاتية ، متنقلاً من « المأساة » إلى « الكفاح » ثم « الحصاد » (١٩٦٨ م) عناوين أجزاء سيرته الثلاثة .

فيضع أمامنا صورة لنضاله مع المرض عبر فترة تمتد « ربع قرن فى القيود » .

ويجمل عرضه صفات والديه قبل أن يمضى فى أحداث طفولته التى كان لها أثرها فى تشكيل شخصيته .

فوالده كان عاطفياً ، عصبياً ، شديد الخجل ، معتزاً بكرامته ، يميل إلى فرض رأيه وميوله الخاصة على عائلته ، يؤمن بالعلم ، ويعطف على الضعفاء .

وأمه كانت هادئة ، جريئة ، مندفعة ، قاسية لا تهزها آلام الغير ، ولا تتعاطف مع المساكين أو ترحم الضعفاء ، مرحة متفائلة .

وفى المدرسة يحقق « صبحى الجيار » تفوقاً أثناء انتظامه فى الدراسة .

ويصل بالقارئ فى سرده إلى اليوم الذى لا ينساه يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٤١ م ، أثناء الإجازة الصيفية بين السنة الثانية والثالثة الثانوية . إذ بعد أن لعب الكرة مع أصدقائه ، يشعر بألم فى كعب قدمه اليمنى . وكانت هذه البداية يقول عنها : « لم أكن أعلم أنه فى تلك اللحظة قد تحدد مصيرى . وانقلبت كل خططى وآمالى رأساً على عقب . لم أكن أعلم أن هذه الوخزة البسيطة هى الشرارة الأولى التى سوف تندلع منها نار متأججة تسرى فى عظامى وتلتهم مفاصلى » (ص ٢٢٤) .

ويصحبه والده إلى الأطباء ، ولكن الألم يزداد ، وتتعدد وسائل العلاج حتى طرق وسائل المشعوذين والدجالين ، وبدأ يضيق بالحياة ، ويدب فى أعماقه اليأس ، ويحس الغربة فى أسرته .

ويصحبنا « صبحى الجيار » فى أول أجزاء سيرته « المأساة » لنتجول معه فى شتى المحاولات التى بُذلت كى يقهر اليأس ، والتغلب على الألم . فنطلع على معدن الإنسان الذى يسعى لاهثاً بالجسم العليل وراء أمل الشفاء .

وكانت تجربة قاسية على نفسه يوم أن ركب سيارة الإسعاف لأول مرة ، واضطروا إلى رفعه فوق النقالة ، فأحس أنه « جثة هامدة محمولة فى نعش مرفوع على الأكتاف » . (ص ٣٣٦) .

وما أكثر اللحظات المؤثرة التى مرت بحياته حتى تبلغ المأساة ذروتها ، ولم يكن تجاوز الثمانية عشر من عمره .

ومعه فى الجزء الثانى نرافقه فى مرحلة « الكفاح » من سيرته التى يرى فيها غرابة لأنها حكمتها ظروف غير مألوفة ، ولم يكن الكفاح فيها من أجل لقمة العيش فحسب ، ولكن أيضاً لبلوغ السعادة وسط الشقاء .

ويقرأ كثيراً من الكتب الأدبية ، ويؤلف القصص ، ولكن هذا الجهد التثقيفى لم « يردعه عن تلك اللعبة الانتحارية » (ص ١٠ جـ ٢ ربع قرن فى القيود) التى ساقته إلى ممارستها أحاسيس مراهقته ، فيرسم النساء العاريات ، ثم ينشر إنتاجه فى الرسم والقصة فى مجلة

إقليمية . ويتتابع نشر إنتاجه فى عدد من المجلات على الرغم من عجزه الذى قيده إلى السرير . ويحاول أن يمارس بعض الأعمال التجارية التى تدر عليه دخلاً مستغلاً هواياته المتنوعة .

وبينما هو يشق طريقه فى الحياة من مرقده ، يلتقى بالإنسانة التى يكون لها أثرها فى حياته لأنها تصير سكرتيرة نشطة له وممرضة حنوناً .

وذلك منذ أن التقت بابن عمته تسأله عن عائلة طيبة تحتمى بها حتى تعثر على أقربائه بالقاهرة . وكانت تعانى الوحدة والغربة منذ قدومها من قريتها هرباً من زوج أمها . فيجدها فرصة سانحة ليصحبها إلى البيت الذى تجد فيه مأواها وترتبط به إلى مدى الحياة .

ويفكر « صبحى الجيار » فى الزواج منها ، ولكن مشروعاته فى هذا السبيل تفشل .

ويعود إلى ممارسة هواياته الأساسية من رسم وتأليف وترجمة ليؤكد شخصيته فى المجتمع وبين أهله ، فيحقق فى هذه المجالات النجاح . ويكتسب كثيراً من الخبرات فى الصحافة العملية .

وانتظم له الراتب الشهرى نظير تحريره مجلة « روايات الأسبوع » ، ثم يستقل بنفسه ، ويصدر لحسابه مجلة « قصتى » التى تكشف عن طاقات شابة وصارت تحتل مكانتها فى الصحافة والأدب مثل أحمد بهجت وغالى شكرى ومحمد الخضرى وغيرهم .

وأتاح له العمل الصحفى عقد صداقات كثيرة ومتنوعة من الجنسين .

وكان لعلاقاته بالمرأة دورها معه حيث يفرد لها صفحات يذكر مغامراته ، لاسيما وأن لقاءه معهن كان يتم فى حجرة نومه .

ثم يقف بغتة وسط الطريق محاولاً أن يحدد مكانه فى القصة والأدب ، فيشترك فى مسابقة نادى القصة ، ويفوز بجائزتين وتكتب عنه الصحف وتشير إلى مرضه ، فيدخل المستشفى الجمهورى ، ويتركه دون تحقيق الأمل المنشود .

ثم يصدر القرار الجمهورى بعلاجه فى الخارج .

ويبدأ التأهب للسفر مع الصفحات الأولى لسيرته فى جزءها الثالث الذى عنونه بـ « الحصاد » .

وأصبح أمله أن يمكنه العلاج من خدمة نفسه أو الخروج إلى الشارع دون الطمع فى الحياة

كإنسان عادى .

ويشغل إعداد حقيبته للسفر ، وركوب الطائرة ، ووصف استقباله فى لندن ومستشفياتها صفحات تبلغ ١٦٨ صفحة .

ثم يبدأ فصلاً عنوانه « الحصاد » يسرد فيه مواجهته للحياة بعد أن خاب أمله فى لندن . ويمضى فى مرحلة جنى الثمار أو موسم الحصاد الذى يقول عنه : « بعد أن كنت أكافح الحياة فى جهود مضنية ، سعياً وراء اللقمة المتواضعة ، أصبحت أنال من الكماليات فوق ما كنت أتوقع » (ص ١٦٩ جـ ٣ ربع قرن ..) .

ويجعل هدفه فى الحياة أن يعيشها فى سعادة مصدرها أعماقه .، ويأخذ فى ترويض أمراضه ، والتكيف مع معوقاته ، والتغلب عليها ، فيسهب فى ذكر ذلك ثم يتابع إنتاجه فى الإذاعة ومؤلفاته ومنهجه فى التأليف والترجمة .

ولا تخلو السيرة من وقفات يفرد لها صفحات ليعرض فيها فلسفته فى أمور كثيرة أو يصدر أحكاماً على سبيل التعميم .

فالحب يقسمه إلى أنواع ، حب الوالدين ، وحب الأبناء لوالديهم ، وحب الأصدقاء من نفس الجنس . الأول أسمى حب والثانى لا ترتفع فيه العاطفة إلى مستوى حب الآباء للأبناء ، والثالث يتولد من الصداقة الأخوية . ثم يقسم الحب إلى درجات ويحلل الأنواع التى يتناولها من جانبها المظلم والمشرق .

ويدلل على أحكامه العامة التى يصدرها فى الأمور المعنوية بتجاربه الشخصية فالسعادة « قوة معنوية ، قوامها الإرادة والإيمان والرضا ، والكفاح الدؤوب المتفائل » . (ص ١٧٣ جـ ٢ ربع قرن ..) .

ثم يضيف « وهذه صفات لا تنقصنى » .

وإذ ينتهى القارئ من الأجزاء الثلاثة التى يجمعها عنوان عام « ربع قرن فى القيود » يكون قد ألم بسيرة صاحبها ظاهراً وباطناً .

وسبق له عرض حياته فى فصل طويل يتضمن كتاب « لم قدر علىَّ هذا ؟ » « لإيرل فايرز » كتب فيه بإيجاز ما سرده تفصيلاً فى ثلاثية سيرته .

* * *

٥٠ يوماً من معاناة .. حسين القباني

ويشترك الأديب القصاص حسين القبانى مع الأديب صبحى الجيار فى تدوين سيرته الذاتية فى كتاب « لم قدر علىَّ هذا ؟ » ..

والفصل الذى يختص به يصف ملابسات مرضه ويتمه وحرمانه من أبسط مقومات الحياة ، وقسوة الأب ، وكل الظروف التى أحالت حياته لوناً فريداً من الكفاح .

فقد ألقت به الأقدار تحت رحمة أخ كبير غير شقيق ، عامله بلا رحمة هو وأخاه الصغير الشقيق ، مما أدى به إلى المرض فى الفصل الرابع الابتدائى . ودخل المستشفى ، فخرج منه مقعداً .

وكان لا مناص من استقلاله بمعيشته فى القاهرة مكافحاً مع أخيه ، متحملين معاً أزمات الحياة القاسية حتى يتاح لأخيه الحصول على وظيفة ، وينال هو شهادة التوجيهية .

ويدخل مستشفى القصر العينى ليعالج كما دخله « صبحى الجيار » . ويخرج مثله بصور وتجارب من الحياة ، ومع الناس .

ثم يعيش فى « حلوان » من ضواحى القاهرة ، على أمل أن تتقدم صحته .

ويجدها فرصة مواتية ليقرأ ويطلع ، ويفتح أمامه آفاقاً من المعرفة رحبة ، فيعالج الكتابة ويكتب القصة ، ويدرس بالمراسلة مع أحد المعاهد البريطانية فن الصحافة والتأليف .

ويستقيم له الأسلوب فتنتشر قصصه فى أكثر من مجلة وصحيفة .

وبعد أن يطمئن إلى مستقبله يتزوج ويرزقه الله بابنة .

ويسافر مع « صبحى الجيار » إلى لندن للعلاج على نفقة الدولة ، ولكنه لا يحقق من العلاج ما يجعله يتجاوز الحركة فوق مقعده المتحرك ، ولذا يعود إلى وطنه محتفظاً بروحه المعنوية العالية متحلياً بالصبر والرضا بقضاء الله .

ويفصح حسين القبانى عن صور من حياته القاسية أثناء علاجه فى لندن ، وذلك فى كتابه « ٥٠ يوماً فى لندن » يستكمل به سيرته الذاتية .

ويحدد هدفه من هذا الكتاب بقوله : « أقدم صورة واقعية صادقة للكثير من مظاهر الحياة فى

إنجلترا بوجه عام ، وفى لندن بوجه خاص مقرونة بإحساساتى ومشاعرى كإنسان وكاتب يعانى من مرض مزمن » .

ويمضى فى وصف تجربته كإنسان عاش أمل الشفاء ، من مرضه ، ولم ينل مراده ، ولكن الإحباط لم يعرف طريقه إلى نفسه . ويجود قلمه بصنوف شتى من الأدب تحقق له الذيوع والانتشار .

سيرة ذاتية جوانية

والدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، والذى حصل على الدكتوراة من جامعة السربون بفرنسا فى محمد عبده الاستاذ الإمام الذى ترك تأثيره الفكرى عليه .

والدكتور عثمان يكتب سيرته الذاتية ، مستخلصاً منها فلسفة ذات طابع إسلامى يطلق عليها « الفلسفة الجوانية » .

ويطوى سيرته فى كتابه « الجوانية » [1] (١٩٦٤ م) . واهتمام الدكتور عثمان أمين بفن السيرة الذاتية واضح نشأ مع باكورة تكوينه الفكرى . ففى إجازته الصيفية من الجامعة كان يعود إلى قريته ، وقد حمل معه روائع من المؤلفات الأجنبية التى تترجم لمشاهير الأدباء والفلاسفة وكُتاب أعلام مثل كتاب « بوزويل » عن « حياة جونسون » ، و « أكرمان » عن « أحاديث جوته » ، و « ذكريات الطفولة » « لأرنست رينان » . ويفسر اختياره لهذه الكتب بقوله :

« ولعل اختيارى لهذه الكتب الثلاثة لم يقع مصادفة وجزافاً ، فربما كان الدافع إليه شغفى بذلك النوع من الأدب الذى يعنى بسير المفكرين ، وإيثارى لمعرفة آثارهم معرفة مباشرة من ثنايا كلامهم وتصرفاتهم فى مختلف مواقف حياتهم » (ص ٦٣)

وفلسفة د . عثمان أمين اهتدى إليها « بعد إطالة النظر فى أمور النفس ، ومتابعة التأمل فى بطون الكتب ، مع مداومة التعرض لتجربة الوقائع والمعاناة لشؤون الناس » (ص ٩)

---

(١) الدكتور عثمان أمين ـ الجوانية . القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٤ . ص ٦٣ .

وهذه الفلسفة وثيقة الصلة بسيرة صاحبها الذاتية ، ومن ثمة فهو يبدأ عرضه لفلسفته بباب عنوانه « بوادر الجوانية عندى » ، يروى فيه حياته من « القرية إلى الجامعة » حيث يصحبنا معه إلى قريته حينما لم يطق طريقة التعليم فى كُتاب قريته ، ويُعجب بتفسير الأستاذ الإمام محمد عبده « لجزء عم » الذى تعلمه على يد والده ، وأعجب بمحمد عبده مما كان له أثره الجوانى فى دراسته وأبحاثه فيما بعد . ثم يلتحق بالتعليم النظامى وينتقل إلى القاهرة . ويعقب على هذه المرحلة بأنها بدأت بالاحتجاج على « البرانية » المتمثلة فى برانية فقيه الكُتاب .

ويقرر أن جذور فلسفته بدأت منذ أن أحس فى حداثته بأن له حياة داخلية نامية متغيرة على الدوام .

ويتابع تسجيل المرحلة الإيجابية من حياته الجوانية ، البناء بعد الاحتجاج ، واستشفاف الجوهر من وراء الأعراض .

وعلى هذا النهج يسير فيظهرنا فى « يوميات جوانية » على أطوار حياته الروحية والعقلية ، والتى دونها لا يمكن فهم فلسفته الجوانية التى يعرضها كأنها تفصيل مهيب يعكس ما استوحاه من الحياة التى عاشها وانطوت عليه سيرته الذاتية الجوانية التى غاصت أعماق نفسه ونأت عن التعلق بالظاهر .

***

سير الأطباء الذاتية

من أبرز السير الذاتية التى كتبها الأطباء لأنفسهم فى الأدب العربى الحديث ، سيرة الدكتور نجيب محفوظ التى عنونها « حياة طبيب » ونشرها عام ١٩٦٥ م . ثم أعيد طبعها ثانية عام ١٩٦٦م . وترجمها مؤلفها إلى الإنجليزية تحت عنوان : The life of an Egyption doctor ونشرتها شركة لننجستون للطباعة والنشر .

وتميزت الطبعة العربية الثانية بمقدمة للدكتور طه حسين ، تضمنت قوله عن مؤلفها صاحب السيرة الذاتية : « نكاد نعتقد أنه لم يكتب لنا إلا حديثه الخاص إلى نفسه ، كأنه يستعرض فى أوقات التأمل والتفكير حياته منذ الصبا إلى أن تقدمت به السن ... وهو لا يخفى شيئاً مما سره ، ولا مما أسخطه فى حياته ، بل هو ينبئنا بأنه لم يكن صاحب عناية بالطب وحده ، وإنما كان مشاركاً فى الأدب أيضاً .. » (ص ٢) .

فالدكتور نجيب محفوظ طبيب له اهتماماته الأدبية ، يقص فيا يروى : « أحداث حياتى ، وذكريات أيامى » التى يسميها « مذكراتى أو ذكرياتى » ثم يعرض حياته ابتداء من حجرة ميلاده حيث كاد يفارق الحياة من « أسفكسيا بيضاء » . ثم يعود بذاكرته ليستخرج أقصى ما يمكن من الصور المخزونة التى لا يتجاوز أبعدها الرابعة من عمره .

وفى مكتبة أبيه استوعب كثيراً من كتب الأدب واستظهر بعض الشعر والنثر .

ويفرد صفحات لدوره فى مكافحة وباء « الكوليرا » عام ١٩٠٢ م حيث كشف عن مصدر الوباء فى قرية « موشا » باستخدامه أسلوباً علمياً فى التفكير تميز به طوال حياته .

ثم يواصل تقدمه فى مجال الولادة وأمراض النساء ، ويزور مستشفيات أوربا ويعود إلى مصر مواصلاً كفاحه العلمى ووضع مؤلفاته ، وتمنحه الكلية الذائعة (كلية الجراحين) بإنجلترا زمالتها . وينال أكثر من جائزة عالمية ومحلية .

وتحفل سيرته بالعبرة والحكمة التى استفادها من الحياة والتى يذكرها لما فيها من هداية للشباب .

والدكتور مصطفى الديوانى الطبيب الأديب يدون سيرته فى « قصة حياتى » (١٩٦٥ م) التى يقول عنها الشاعر عزيز أباظة فى مقدمتها : « أهو كتاب سيرة ؟.. يجوز فإنك لترى عنوانه دالاً على ذلك . وانت ترى كذلك أقساماً برمتها من فصوله ومقاطيع ونتفاً متناثرة فيه هنا وهناك مثبتة أنه كتاب سيرة . ولكنك لا تكاد تنساق فى مطالعة فصول أخرى حتى تسأل نفسك أقصة هذه ؟ وانت جد عالم أن عناصر القصة ومقوماتها لم تتوفر فى هذا الذى تقرأ . ولقد تسأل نفسك كذلك أهو كتاب من الكتب الحاشدة التى تجمع بين الفن العلم والأدب .. » .

أما المؤلف فيقول عن سيرته : « لقد سردت فى هذه الصفحات ما يكفى لتغطية مراحل أى حياة . ولكنى ما زلت أشعر أن هناك فراغات هائلة لم تملأ بعد ، وقد يكون فراقنا عند الصفحة الأخيرة من كتابى وداعاً إلى لقاء ، لأن ما كتبته لكم ليس حياتى كلها إنه نصف حياتى » .

ثم يتابع نشأته وتعليمه وأول ممارسته للطب عملياً ، ثم يذكر لنا أشجانه وتجاربه فى عالم ما وراء الحس فى إسهاب وتفصيل طويلين .

والدكتورة نوال السعداوى التى ينتشر اسمها فى كثير من المجلات المصرية ، تغوص فى سيرتها الذاتية « مذكرات طبيبة » (١٩٦٥ م) أعماقها كأنثى تخطو فى الحياة باحثة عن استقرارها النفسانى والاجتماعى وسط عالم الذكور . وتبدأ سيرتها منذ أن « بدأ الصراع بينى وبين أنوثتى مبكراً جداً قبل أن تنبت أنوثتى ، وقبل أن أعرف شيئاً عن نفسى وجنسى وأصلى .. بل قبل أن أعرف أى تجويف كان يحتوينى قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع »

(ص ٥) .

ثم تستمر فى سرد بداية ارتطامها بالآخرين الذى نجم عنه إحساسها الأنثوى ، وأنها شئ مفارق ومغاير لجنس الرجال .

وتتابع فى صراحة اكتشافها التغير الفسيولوجى الذى يدمغها بالطابع الأنثوى عندما تقول : « أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى ، ورأيت شيئا أحمر اللون ... ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى حيث قصت على قصة النساء الدامية » (ص ٢) .

ثم تكتشف عالم الرجال بما صادفها من تجارب معهم مما يجعلها تقف منهم متحدية ، وتنفذ إلى أعماق الإنسان فى المشرحة وهى طالبة فى كلية الطب ليكون أول لقاء « سافر لى بالرجل والرجولة » على حد تعبيرها .

وعلى الرغم من ذلك كله تتحرك عاطفتها التى هى « أكثر ذكاء من العقل ، وأكبر رسوخاً فى قلب الإنسان » .

وبعد غوص فى طواياها ، صورت عبره سيرتها نجدها فى نهاية المطاف تلتقى بالرجل الذى تقول عنه : « أخفيت رأسى فى صدره .. أحتمى فيه .. والتصق به .. أصبحت فى حاجة إلى يد حانية تسندنى .. لأول مرة فى حياتى أشعر بالحاجة لأحد ، حتى أمى لم أكن أشعر بالحاجة إليها .. ودفنت رأسى فى صدره .. وبكيت فى راحة وهدوء .. » (ص ١١٠) .

وبهذه الكلمات تكون المرأة قد أضافت بعداً أنثوياً للاعترافات فى السيرة الذاتية .

* * *

سير ذاتية سياسية

ولا نعدم أن نجد سيراً ذاتية لرجال الفكر والأدب الذين اشتغلوا بالسياسة .

ففى عام **١٩٦٢** نشر أحمد لطفى السيد « قصة حياتى » مدارها سيرته الذاتية من خلال دوره السياسى الذى كان له أثره فى تاريخ مصر .

ولما كانت حياته السياسية ترتبط بصديقه وزميله عبد العزيز فهمى ، بفضل الدور الذى لعباه على مسرح السياسة المصرية ونهضتها الاجتماعية ، والعلمية ، فقد كتب عبد العزيز فهمى سيرته « هذه حياتى » (**١٩٦٣** م) لتلقى الضوء على التحولات السياسية فى مصر .

والحق أن نشر السيرتين فى كتب مستقلة لم يكن ميسراً ، إذ سبق نشر بعض فصول من حياتهما فى مجلة « المصور » الأسبوعية المصرية ، ثم توقف النشر ، فكان لا مناص من بذل الجهد حتى تستكمل سيرة هذين السياسيين .

وهذا يدل على أن الاهتمام بتدوين السير الذاتية لرجال السياسة ، ونشرها لم يكن يجد تشجيعاً .

ولعل ما يذكره طاهر الطناحي الذى أشرف على نشر السيرتين من « دار الهلال » المصرية يعطى توضيحاً للإحجام الذى كان يقابل به طلب تأريخ الساسة لأدوارهم .

كما أن سيرتهما كانت تملى كحديث ذكريات ، ثم تصاغ فى القالب الذى يكفل لها التتابع التاريخى .

ولا ريب أن قيمة سير رجال السياسة الذاتية تكمن فيما نجليه من الحقائق التى تخدم الإحساس الوطنى .

وعبد العزيز فهمى أحد الزعماء الساسة الذين وكلوا عن الشعب المصرى لمفاوضة الإنجليز فى رفع الحماية ، وكان يأبى أن يتكلم عن نفسه منذ اعتزاله الحياة السياسية . كما كان يرفض الإيماء إلى خلافه مع الزعيم سعد زغلول ، أو الحديث عن ثورة ١٩١٩ م .

ومما يستوقف النظر أن السير الذاتية ذات الطابع السياسى وثيقة الصلة بثورة ١٩١٩ م طالما كانت تعبر عن التحولات التاريخية فى مطلع القرن العشرين .

وقد كتب الدكتور محمد مظهر سعيد سيرته الذاتية « سجين ثورة ١٩١٩ م » ، وركز محورها على ذاته من خلال دوره فى ثورة ١٩١٩ م ، وأوضح دور « أسوان » فى هذه الثورة .

فكاتبها من مواليد أسوان (٢٠ أغسطس ١٨٩٧) وبدأ تجربته السياسية عام ١٩٠٦ م عقب مذبحة « دنشواى » وهو فى الثامنة من عمره . ويشارك فى مظاهرات مع التلاميذ احتجاجاً على ما وقع فيها ، وكاد أن يحرم من التعليم بسببها ، ثم لثورة ١٩١٤ م أثرها فى تحديد مستقبله ، والدور الذى يلعبه فى ثورة ١٩١٩ م ، وتتابع الأحداث تتابعاً يطلعنا على مواقف صاحب السيرة الوطنية ، وكيف كان السجن عقاباً له وكانت له فيه ذكريات حتى أُفرج عنه عام ١٩١٩ م .

* * *

سيرة ذاتية ضاحكة

ويسجل الكاتب الصحفى فكرى أباظه سيرة حياته الذاتية فى كتاب يطلق عليه « الضاحك الباكى » .. يتضمن مرحلتين من حياته حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ م .. وهى سيرة يقول فى وصفها : « سرد غير متكلف لتاريخ حياة شاب مارس المحاماة ، والصحافة والسياسة ، والنيابة عن الأمة ، والرحلات والسياحات والحب وملحقاته من نجاح وفشل وحلو ومر » .

ولذا يقرر أنها « اعترافات » .. ويصحبنا معه فى رحلة من العمر تبدأ منذ تخرجه من مدرسة الحقوق ، حيث يبحث عن الحب ، ويبدأ بمغامرة غرامية له فى « بنسيون » يتخللها استرجاع لذكريات طفولته ، ثم مواصلة لمسيرته فى خضم الحياة حيث تلازمه المرأة دوماً .

ويكون له دور وطنى متحمس فى ثورة ١٩١٩ م ، وينتقل من مدينة إلى أخرى مع أحداث تعرضه لمخاطرات بوليسية .

وما أكثر الحكايات التى يرويها عن نفسه وعن الآخرين ، فتحس نبض حوادث خارجية أكثر منها وقفات تأملية تكشف أغوار النفس فى تأنٍ ، وهوادة ومصارحة فى قالب صحفى ضاحك باك .

ملامح مشتركة في سيرهم الذاتية

عنى الأدباء الذين ترجموا لحياتهم بإظهار أثر الوراثة والبيئة فى تكوين شخصيتهم .

وشغلت البيئة فى سير بعضهم جانباً هاماً مثل الدكتور طه حسين ، وسلامة موسى . بينما اهتم توفيق الحكيم فى « سجن العمر » بإبراز أثر الوراثة فيه ، وتعادل الاهتمام بالوراثة والبيئة عند العقاد فى « أنا » و « حياة قلم » وأحمد أمين فى « حياتى » وميخائيل نعيمة فى « سبعون » .

وموقفهم من الوراثة والبيئة يثير تساؤلنا عن مدى غلبة تأثير الوراثة أو البيئة فى كل منهم ، وإلى أى حد ساعدت أو أعاقت سعيهم فى سبيل تحقيق أهدافهم وآمالهم .

فالوراثة تمثل مجموع الاستعدادات الجسمية والنفسية ، والبيئة تمثل الظروف والعوامل الخارجية التى تؤثر فى الفرد من بدء تكوينه إلى آخر حياته .. وهى أنواع : البيئة الرحمية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، وغيرها . بحيث تخرج من العوامل البيئية ما يحيط بالفرد ولا يؤثر فيه .

وكانت هناك اتجاهات للفصل بين البيئة والوراثة ، يقول « جننجس » Gennings : « إن الوراثة لا البيئة هى العوامل الرئيسية فى تكوين الشخصية . إذ أن حياة الانسان السعيدة أو الشقية ترجع إلى الوراثة ، والفروق بين الأفراد تعود إلى التباين بينهم فى تكوين الخلايا التى يولدون مزودين بها .. » .

بينما يرى « واطسن » Watson « انه ليس هناك شئ يطلق عليه وراثة الملكات أو المزاج أو القدرة العقلية » .

والحق أن الإنسان ابن الوراثة والبيئة معاً .

وأن كل قدرة أو صفة يتسم بها الفرد موروثة ومكسوبة فى آن واحد . فتتضح سماته الجسمية والعقلية .... بفعل الوراثة والبيئة معاً » .

وتظهرنا السير الذاتية لأدبائنا على أن موقفهم من البيئة لم يكن سلبياً كما أن البيئة لم تكن قوة سلبية بالنسبة لهم ، ومن التفاعل بينهما شداً وجذباً تتشكل شخصية الأديب التى يحددها ما هو موروث وما هو مكسوب .

واشتراك الأدباء أبناء الجيل الواحد فى ملامح عامة ، لا يعنى انتفاء التمييز بينهم . ذلك أن لكل منهم أسلوب حياة يختص به . وهو الذى يعبر عن خطة الأديب وأسلوبه العام فى تعامله الاجتماعى ، وفى حل مشاكله ، وطريقته فى الأخذ والعطاء مع الناس ، وفى التغلب على ما يعترضه من عقبات ، وفى تحقيق آماله التى يطمح إليها ، بحيث يمثل ذلك كله الاتجاه الرئيسى لشخصيته .

ولا ريب أن لمرحلة الطفولة أهميتها فى حياة الأديب ، وقد ركز بعض الأدباء فى سيرتهم الذاتية على مرحلة الطفولة ، لمتابعة نشأة الأنماط السلوكية منذ أن بدأت تتشكل فى طفولتهم الباكرة ، فحددت موقفهم من أنفسهم ، ومن المجتمع المحيط بهم .

وتفاوت تفسير الأدباء لشخصيتهم فى ضوء طفولتهم ، فالدكتور طه حسين وأحمد أمين يهتمان بعرضهما طفولتهما عرضاً تفصيلياً . والدكتور زكى نجيب محمود يعطى اهتماماً كبيراً لطفولته باعتبار العلاقة الوثيقة بين خبرات الطفولة ، والأساليب السلوكية التى سيلجأ إليها الفرد فيما بعد،ففى « قصة نفس » يرجع كل ما صدر عنه من سلوك ، وما اتخذه من مواقف ، وما تميزت به حياته من خصائص إلى أحداث بعينها ، وقعت فى طفولته ، وتكاد تقف عند الرابعة من عمره . وبذلك ضخم هذه المرحلة ، وجمد التاريخ ، وأوقف الصيرورة والاستمرارية فى حياة الإنسان . وكأنه ثبت عند الطفولة ، ولم ينم مع أطوار الحياة إلا ليعكس بصورة أو بأخرى أحداث الطفولة . فينقب عن جذور كل فعل أتاه وهو بالغ أو شاب أو رجل ليجد تحته حادثة

معينة فى الطفولة . وهذا التغير « الفرويدى » لم يعد يؤخذ به كقضية مسلمة .

وتنطوى بعض السير الذاتية للأدباء على ذكر ظواهر مشتركة لعلها تومئ إلى دلالات تكشف عن القدرات الخبيئة فى نفوسهم قبل تبين معالم طريقهم الأدبى والفكرى مثل ما ذكره الحكيم عن نطقه أحياناً بكلام يشبه النبوءة ، فعند رؤيته القطار يتوقع وصول جدته فيه ، وفعلاً يحدث ، ووصول تلغراف بأن عمه مات ، ولكنه يخبر والديه بأن مضمون التلغراف خطأ وأن عمه حيّ لم يمت . (ص ٧٦ سجن العمر) .

ويتكلم العقاد عن حاسته السادسة التى لم تخطئ . فعندما يسأل عن صديق لم يره منذ زمن ، وخطر على باله ، يعلم فيما بعد أنه مات فى نفس لحظة ورود ذكره على ذاكراته وسؤاله عنه . وتتكرر هذه الظاهرة فى حياته ، وشاعت بين أصدقائه وعارفيه .

وعنى أدباؤنا العرب فى سيرهم الذاتية بعرض التربية التى خضعوا عليها . ومنها نقف عند الصدمات والتوترات الانفعالية التى عانوها ، واضطروا إلى قمعها فصارت مكبوتة ، أو ما خلفته فى شخصيتهم من أسلوب للاحتجاج وإعلان الرأى .

فالدكتور طه حسين يصف عودته إلى قريته أثناء اجازته الصيفية من الأزهر . ولا يستطيع أن يقمع نفسه عن معارضة ما كان يسود القرية من أمور عامة وذات صلة بالتقاليد بصفة خاصة .

وتنعكس التربية على علاقة ميخائيل نعيمة بالمرأة منذ أن التقى بها لأول مرة فى القطار أثناءها تحولت المراهقة النفسية والفسيولوجية .

وكان « ميخائيل نعيمة » صريحاً فى عرضه لهفواته وزلاته مع المرأة كما صادفها فى الأماكن التى كان يرتحل إليها .

وعمد معظم أدبائنا فى سيرهم الذاتية إلى إبراز فتوحاتهم الأدبية ، ورياداتهم الفكرية ، ودعواتهم الاخلاقية ، ومواقفهم الاجتماعية الإصلاحية ، وتجاوزوا بما خلعوه على أنفسهم فى هذه المجالات حدود الإمكانيات الإنسانية المتاحة لهم فى ظل ظروفهم .

وكان شباب معظم أدبائنا ، يتسم بالجهامة ، والعبوس ، وما يطلق عليه بعضهم تعالياً ، وقاراً .

لقد أطلقوا على د . طه حسين لقب « الشيخ » وهو ابن التاسعة . وكان أحمد أمين « شيخاً في شبابه » كما يعترف بنفسه .

وكان العقاد « وقوراً » في طفولته لمجالسته أصدقاء أبيه الكبار في ندواتهم الأدبية .

وأغلب أدبائنا لا يأتي ذكر تطورهم الجنسي في مراهقتهم إلا مقروناً بالتسامي والاستعلاء على هذه الغريزة .

وإذا تكلموا عنها أوضحوا أنهم قاوموا الجنس في كيانهم ووأدوه في مهده ، فخفت صوته ، وانتصروا على ندائه .

هكذا عند د . زكي نجيب محمود وسلامة موسى ود . طه حسين الذي أحاطه بالغموض مكتفياً بالإشارة إلى « أبو طرطور » زائر المساء الذي يعقب زيارة نهوض مبكر لطهارة النفس والجسد .

وأغفل أحمد أمين ذكر الجنس نهائياً في سيرته .

بينما يصرح توفيق الحكيم أن معرفته بالمرأة على حقيقتها بدأ في الأماكن المظلمة .

ولا تكاد تجد من تواتيه شجاعته في هذه الأمور الجنسية ليعترف بحقيقة معاناته واستسلامه لها أحياناً مثل ميخائيل نعيمة الذي يعترف بما نصه : « لقد عانيت في كبح عاطفتي الجنسية الشئ الكثير . ولم استسلم لها إلا في فترات من حياتي » .

والأمور الجنسية ، وغيرها من التحولات التي تقع في أغوار النفس ، تنعكس فكرياً وأدبياً على ما يقدمه الأدباء من نتاج للمجتمع . وانتاج الأدباء في بعض مراحل عمرهم هو محصلة الصراعات بينهم وبين المجتمع .

يقول « جينو سفيريني » G. Severni : « من الواضح أن الصراع بين الأديب والمجتمع له أهمية بالغة ، ولكن إذا كان عند الأديب ما يقوله ، وإذا أتيح له القول في حرية فإن الاتصال يمكن أن يتم دائماً بين عالمه وعالم الآخرين .

وقد أجمع أدباؤنا في سيرهم الذاتية على الاعتراف بانطوائهم ، وعكوفهم ، وبرروا ذلك بالطبع الموروث .

ولم تكن عزلتهم عن المجتمع وانفصالهم عنه في بعض مراحل حياتهم أمرا ترتـاح إليه

نفوسهم ، ولكنهم أكرهوا على هذا المسلك ، والعزلة في صميمها بحث عن المخرج من انطوائها للاتصال بالآخرين .

ومبعث العذاب والصراع الذى عاناه أدباؤنا فى مطلع حياتهم هو البحث عن الانسجام بينهم وبين مجتمعهم . وكما يقول « توفيق الحكيم » : « الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال » (ص ٩٣ زهرة العمر) .

وكان ميخائيل نعيمة يميل إلى العزلة فى سن مبكر ، ولذا يقول : « من أين ميلى المبكر إلى العزلة والانفراد والسكوت » (ص ٨٠ سبعون جـ ١) .

ويبرر ميله للعزلة بقوله : « لما فى العزلة من سوانح للتقرب من النفس وتفقد ما فى زواياها من بذور صالحة وطالحة » . (ص ٨٠)

ويضيف : « إننى فى علاقاتى مع الناس حريص كل الحرص على عزلتى . فالعزلة حاجة فى نفسى مثلها الخبز والماء والهواء حاجة فى جسدى . ولابد لى من ساعات أعتزل فيها الناس لأهضم الساعات التى صرفتها فى مخالطة الناس (ص ٥٠) .

ويمكن أن تقسم الذات من حيث علاقتها بالمجتمع إلى أربعة أقسام .

أولا : ذات لا تشعر بالغربة أو العزلة فى المجتمع لأنها متكيفة دائماً مع البيئة الاجتماعية وهى فى الغالب تفقد الأصالة فى الفكر .

ثانيا : ذات لم تجرب العزلة ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تبالى بالمجتمع ، فالذات منسجمة مع البيئة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية ، ولكن صاحبها لا يكترث بالحياة الاجتماعية أو مصير قومه ، وينأى بنفسه عن أى صراع .

ثالثا : ذات تشعر بالعزلة ، ولكن لا توجد لديها اهتمامات اجتماعية ، وصاحبها إما أن يكون متكيفاً مع المجتمع تكيفاً ضئيلاً جداً أو غير متكيف على الإطلاق ، ويعانى من شعور الانفصام ، وفقدان الانسجام الداخلى .

رابعا : ذات تشعر بالعزلة وتبحث عن مخرج منها .

وذوات أدبائنا فى سيرهم كانت تبحث عن الاتصال بالآخرين عن طريق البحث عن الأسلوب الذى يعبرون به عن أفكارهم واتجاهاتهم التى جاءت وليدة الثقافة الواسعة .

ولذا فإنه بقدر ما كان « الحكيم » يعانى من مواضعات المجتمع ، فقد كان يجد فى حماسه للثقافة والمعرفة متنفسه ، ويتسع معنى الثقافة عنده لتصير ذات معنى شامل إذ يقول عن الثقافة : « إن المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الإحساس » (ص ١٣١ زهرة العمر) .

والثقافة الكاملة التى تخرجه من عزلته ترتبط « بالتربية الكاملة » وهى كما يراها : « تربية جميع الملكات والحواس مجتمعة ، فتربية ملكة العقل وحدها لا تكفى عند رجل الأدب والفن إن لم تصاحبها تربية حاسة البصر ، وحاسة السمع .. وحتى حاسة الشم والتذوق .. التربية الكاملة للحواس والملكات هى ما أسميه « الثقافة الكاملة » .. ولكل حاسة عوالم من الجمال لا نهاية لها .. وانه ينبغى لنا ، إذا أردنا الارتفاع بآدميتنا أن نسمو إلى تلك العوالم وأن نجوس فى أرجائها الواسعة .. تلك هى التربية الكاملة والثقافة الشاملة » (ص ١٧٤ زهرة العمر)

ويستحوذ عليه الاهتمام بالبحث عن الأسلوب لأن فيه صلة يعقدها بينه وبين الآخرين ، ولكن كيف يخلق الأسلوب « لايخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق فى شعوره وتفكيره إلى أن ينسيه أنه ينشئ أسلوباً » (ص ١٢٦ زهرة العمر) .

ثم يجد فى « الحوار » الذى طالما قلق بحثاً عنه فى فرنسا ومن أجل الثقافة التى تمكنه من تجنب حياة اللهو فى باريس « هذا القلق يحرمنى التمتع بالحياة والشباب وباريس » (ص ١٢٣ زهرة العمر) .

ونفس الجهد فى التثقيف الذاتى ، والبحث عن الأسلوب دون الالتفات إلا إلى ما يمتع العقل ، نجده عند سلامة موسى أثناء إقامته وتنقله فى بعض دول أوربا ، يقول : « سافرت إلى فرنسا ، وهبطت باريس .. شباب وفراغ باريس . وأنا فى التاسعة عشر ، ولكن لا فإن باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى يحج إليها المصطافون ، ويجدون فيها ما يشتهون .. كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية .. »

وعن الأسلوب الذى اختاره يقول : « اخترت أسلوباً آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ... وليس من شك أن حبى « لداروين » وتحيزى لنظرية التطور منذ نشأتى الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى » .

ويكشف الدكتور حسين فوزى عن جهده فى التثقيف الذاتى وأثر باريس فيه ، فيبين أنه

منذ أن وصل إلى فرنسا وضع لنفسه خطة هدفها أن يكون على حد تعبيره .. على اتصال بالفن الذى أحب ، والعلم الذى أحصل . الاطلاع فى المنزل ، وتتبع الحركة الفنية خارجاً .. » (ص ١٤٥ سندباد فى رحلة الحياة) .

ويصف أيامه فى باريس بقوله : « كل ما استطيعه هو القول بأننى أعيش فى يوم مثل هذا خمس سنين من حياتى ، وذلك ما كان من أمر خطواتى الأولى بباريس » (ص ١٤٦ سندباد فى رحلة الحياة) .

وخاض ميخائيل نعيمة تجربته فى التثقيف الذاتى ، ومحاولته الدؤوب لاكتشاف الأسلوب فى أكثر من لغة مما كان له أثره على لغته العربية . وقد نشأ عنده البحث عن أسلوب يميزه ويمتاز به منذ أن تفطن إلى سحر الكلمة وهو تلميذ فى المدرسة ، فيقول : « تلك المدرسة التى كانت مدخلى إلى عالم الحرف العجيب ، ذلك الحرف الذى سحرنى ، ولايزال بما فيه من طاقة على الخلق لا نفاذ لها ، والذى لولاه لما كان هذا الكتاب ، أو أى كتاب ، ولما كان للإنسان أن يتعالى على الحيوان » . (ص ٥٦ « سبعون » جـ ١) .

وعن جهده لاكتساب ذخيرة لغوية يقول : « ما ان أحسست أنى قادر على قراءة الكتابة غير المشكولة وتفهمها حتى استهوانى أن أوسع قاموسى جهد المستطاع بحفظ مفردات جديدة وبالأخص تلك التى كنا ندعوها « لغوية » أى مفردات تحتاج إلى الشرح والتفسير . واتفق أن وقعت فى مكتبة خالى على نسخة من « مجمع البحرين » فهالنى ما فيها من الكلمات « اللغوية » والأمثال العربية . فاقتنيت دفتراً كبيراً ورحت أنقل إليه ما أستسيغه من تلك المفردات لأعود إليها من حين إلى حين فأحفظ ما أمكننى منها لاستعمالها عند أول فرصة تتاح لى » .

ويتأكد له أن سيطرته على الأسلوب لا تتأتى إلا بامتلاكه ناصية المعرفة لأنه أراد أن يكون له : « فى النثر أسلوب مرن ، رشيق ، وفى الشعر عذوبة . وسلاسة إيقاع الموسيقى ... ومهما تكن طبيعة الإنسان غنية فلابد لها ، لتصبح شاملة ، من الاستعانة بتجارب الغير .. » .

ويقبل فى نهم على القراءة ، ويجد فيها العزاء على قسوة الأيام .. « سلواى الكبرى كنت

أجدها فى معاشرة الكتب ومعاشرة قلمى . فقد أقبلت على مطالعة الشوامخ فى الأدب الإنجليزى بمثل الشراهة التى بها أقبلت على مطالعة الأدب الروسى .

وانفتح لى باب الكتابة باللغة العربية فولجته بلهفة من طالت غربته عن أهله وعن باب داره » .

وإذا كانت أهداف أدبائنا قد تعددت من وراء اهتمامهم باللغة فإن ميخائيل نعيمة يقول : « حرصنا على اللغة يجب ألا ينسينا القصد من اللغة . فجميل بنا أن نصرف همنا إلى تهذيبها وتنسيقها لنكسبها دقة ورقة . إنما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزاً إلى ما هو أكبر وأجل منها بمراحل . » ..

ويوضح الدكتور يوسف مراد القصد من اللغة بنصه « اللغة إذن من عوامل تنظيم الفكر وتيسيره وهى بمثابة الآلة التى يستخدمها العقل لزيادة إنتاجه وتوسيع آفاقه ، وبالتالى توسيع المجالات التى يحقق فيها كشوفه واختراعاته . غير أنه يجدر بنا ألا ننسى أن اللغة ليست إلا آلة ، وإن كانت أدق الآلات التى خلقها الفكر الإنسانى وأكبرها خطراً ، وإذا كان الفكر يتضح ويدق بفضل اللغة ، فما ذلك إلا لأن المعانى كلما تجردت عن الأعراض الحسية وتحولت إلى رموز ورسوم معنوية ، أصبحت أكثر مطاوعة للفكر الذى يستخدمها . وغنى عن البيان أن الألفاظ هى التى تهب نفسها للعقل ، بل العقل هو الذى يخلق الأشياء بإدراك معانيها وبتسميتها »[١] .

وكان إقبال أدبائنا على اللغات الأجنبية منمياً لاستعداداتهم ، ومؤكداً لقدراتهم ، ومدعماً لمواهبهم لأن « اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ، إذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى ، وجودتها ، وقصورها ، بحسب تمام الملكة ونقصانها ... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالاً ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أى صفة راسخة »[٢] .

وكما يقول « ابن خلدون » عن الملكة « الملكة إنما تحصل بالتعليم » (ص ٥١٣ مقدمة

---

(١) الدكتور يوسف مراد ـ مبادئ علم النفس العام . ط ٢ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٤ ص ١٩٠ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون . القاهرة ، المطبعة البهية ، ص ٥٠٩ .

ابن خلدون) .

ولا شك أن اطلاع أدبائنا على اللغات الأجنبية أفادهم فى إجادتهم البيان فى لغتهم العربية .

يقول « أبو هلال العسكرى » : « ومن عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له منها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الأولى » [1] .

وأقبل أدباؤنا على الآداب المتنوعة يقرأونها فى شغف ، كما أقبلوا على فنون المعارف يطلعون عليها ، ويثقفون أنفسهم تثقيفاً ذاتياً .

إذ يلزم الأديب أن يحيط بالمعارف التى تفسح أمامه آفاق الفكر .

يقول « ابن خلدون » : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف » (ص ٥٠٨ مقدمة ابن خلدون) .

ويقول « أبو الهلال العسكرى » : « ينبغى أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعانى وإلى الحساب وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة » (ص ١٤٦ كتاب الصناعتين) .

إذ أن ما يجود به فكر الأديب لا يهبط عليه كالهبة ، ولكن « الإلهام يصدر عن الشخص ولابد من تهيئة التربة التى سينبت فيها ، فإن أرباب الفن الذين يحدثوننا عن الهاماتهم الخاطفة ، ينسون عادة أن يذكروا لنا أبحاثهم السابقة ، ومحاولاتهم العديدة وكل ما قاموا به من القراءات والمشاهدات والتأملات التى تدور حول المشكلة التى تشغل أذهانهم » (ص ٢٥٠ مبادىء علم النفس العام) .

ويقول الدكتور حسين فوزى فى سيرته : « العبقرية قد تنزل من السماء قبساً ، لا مائدة حافلة ، وانها أولاً وآخراً عمل ودأب ، وغوص على أغوار الثقافة » (ص ٢٠٨ سندباد فى رحلة الحياة) .

ولذا فجهد الأديب فى تثقيف ذاته لا ينقطع ، ويظل يلتهم المعرفة بروح المتطلع النهم ،

(١) أبو هلال العسكرى ـ كتاب الصناعتين . ط ٢ ، القاهرة ، المكتبة الجديدة . ص ٦٦ .

ويكون كما قال « سارتر » فى « سيرته الذاتية » : « إنى طالب مجتهد أكثر مما هو ذكى .. إن كتبى تنبعث منها رائحة العرق »[1] .

وبقدر ما بذل أدباؤنا من طاقة إبان تكوينهم الأدبى ، كان حظهم من إجادة الأعمال التى كتبوها ، وكما يقول الدكتور يوسف مراد : « لو لم يكن الشاعر أو الأديب أو الفنان ذا ثقافة واسعة ، أجهد عقله فى اكتسابها لما أتيح له أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة التى تطوى الدهور طياً دون أن تفقد روعتها » (ص ٢٤٩ مبادئ علم النفس العام ط ٢) .

ويلخص « سومرست موم » تجربة الفنان عندما ينتج فى سيرته الذاتية « دروس من الحياة » بنصه : « إن إنتاج العمل الفنى لا يتم بمعجزة ، إنه يحتاج إلى تمهيد ، والتربة الفنية مهما تكن خصوبتها ، تحتاج إلى رعاية وغذاء ، فبالتأمل ، وتشرب أفكار الغير وبالجهد الذاتى ، المتصل ، يتسع حتماً أفق الفنان ، ويعمق تفكيره ، وتتنوع شخصيته » (ص ٥٤) .

وبقدر ما بذل أدباؤنا من عناء فى تثقيفهم الذاتى ، كان إثراؤهم للحياة الفكرية والأدبية والفنية ، فى العالم العربى ، كما أفصحت عن ذلك سيرهم الذاتية .

***

(١) سارتر . ت ـ سيرتي الذاتية ـ الكلمات . تأليف ت . سارتر وترجمة سهيل ادريس/ بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٤ ص ١٢١ .

قائمة تاريخية بالسير الذاتية [1]

١٩٠٩	كتاب الاعترافات وهو قصة نفس تأليف عبد الرحمن شكرى [2]	
١٩٢٦	الأيام الجزء الأول	تأليف الدكتور طه حسين
١٩٣٩	الأيام الجزء الثانى	تأليف الدكتور طه حسين
١٩٤٧	تربية سلامة موسى	تأليف سلامة موسى
١٩٥٠	حياتى	تأليف أحمد أمين
١٩٥٣	من ذكريات الفن والقضاء	تأليف توفيق الحكيم
١٩٥٨	الضاحك الباكى	تأليف فكرى أباظة
١٩٥٨	من حياتى	تأليف يوسف السباعى
١٩٦٠	لم قدر علىَّ هذا ؟	يتضمن سيرتى صبحى الجيار وحسين القبانى
١٩٦١	قصة حياة	تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى
١٩٦١	٥٠ يوماً فى لندن	تأليف حسين القبانى [3]
١٩٦٢	قصة حياتى	تأليف أحمد لطفى السيد

(١) وهى تحتمل من الاضافات بقدر ما تستثير من دراسات حولها أو اعداد قوائم متخصصة .

(٢) أول صدورها فى كتاب عام ١٩٢١ من مطبعة جرجى عزوزى بالأسكندرية .

(٣) امتداد لسيرته فى : لم قدر علىَّ هذا ؟

١٩٦٢	سبعون الجزء الأول	تأليف ميخائيل نعيمة
١٩٦٣	هذه حياتى	تأليف عبد العزيز فهمى
١٩٦٤	أنا	تأليف عباس العقاد
١٩٦٤	سبعون الجزء الثانى	تأليف ميخائيل نعيمة
١٩٦٥	حياة قلم	تأليف عباس العقاد
١٩٦٥	حياة طبيب	تأليف الدكتور نجيب محفوظ
١٩٦٥	مذكرات طبيبة	تأليف الدكتورة نوال السعداوى
١٩٦٥	قصة حياتى	تأليف الدكتور مصطفى الديوانى
١٩٦٦	سبعون الجزء الثالث	تأليف ميخائيل نعيمة
١٩٦٧	سجن العمر	تأليف توفيق الحكيم
١٩٦٧	قصة نفس	تأليف الدكتور زكى نجيب محمود
١٩٦٨	سندباد فى رحلة حياة	تأليف الدكتور حسين فوزى
١٩٦٨	ربع قرن فى القيود	٣ أجزاء تأليف صبحى الجيار
١٩٦٨	مذكرات طه حسين	تأليف الدكتور طه حسين
١٩٦٩	سجين ثورة ١٩١٩	تأليف الدكتور محمد مظهر سعيد

* * *

قائمة رواية السيرة الذاتية[1]

ابراهيم عبد القادر المازنى :

صندوق الدنيا (١٩٢٩)[2]

خيوط العنكبوت

ع الماشى

فى الطريق (١٩٥٣)

ابراهيم الكاتب (١٩٣٢)

ابراهيم الثانى (١٩٤٣)

توفيق الحكيم :

عودة الروح (١٩٣٣)

عصفور من الشرق (١٩٣٧)

يوميات نائب فى الأرياف (١٩٣٧)

زهرة العمر (١٩٤٤)

من ذكريات الفن والقضاء (١٩٥٣)

---

(١) تتضمن القائمة روايات السيرة الذاتية والتجربة الشخصية لجيل الرواد ، فهى تحتمل إضافات .

(٢) رأينا إضافة هذه الأعمال التى تجمع بين القصة والمقالة التى تتضمن استلهاماً أو سرداً لجوانب حياة الأديب .

عبد الرحمن بدوى :

همومم الشباب (١٩٤٥)

محمود تيمور :

نداء المجهول (١٩٤٨)

محمد حسين هيكل :

زينب (١٩١٤)

❊ ❊ ❊

المراجع

(١) **عبد الرحمن بن خلدون :ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً :**

تأليف عبد الرحمن بن خلدون وتحقيق محمد بن تاويت الطبجى . القاهرة ، لجنة التأليف واالترجمة والنشر المصرية ، ١٩٥١ .

(٢) **فارس بن يوسف الشدياق :**

الساق على الساق فيما هو الفارياق أو أيام وشهور وأعوام فى عجم العرب والأعجـام . باريس ، رافائيل كحلا ، ١٨٥٥ م .

(٣) **على مبارك :**

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . عشرون جزءاً . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٦ هـ .

(٤) **السيد محمد رشيد رضا :**

تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . جـ ١ . القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٩٣١ ص ٢٥

(٥) The Shorter Oxford english dictionary
Ed. 1959. P.P. 125.126 248, 502. 1069 1546, 1235, 1836
Webster's Third New International Dictionary Ed. 1961. p.147

(٦) **د . أحمد فؤاد الأهوانى :**

فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ ص ٣٨

(٧) Drink water, John. The Outline of Literature — London 1950 P.P. 483, 754

(٨) مادة Autobiography في دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ط ١٩٦٨ ص ٨٥٤ وما بعدها .

(٩) الدكتور ابراهيم سلامة :

تيارات أدبية بين الشرق والغرب . القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥١ . ص ١١

(١٠) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن الويرى :

نهاية الأرب فى فنون الأدب . القاهرة ، دار الكتب المصرية . ص ٨٤ وما بعدها .

(١١) الدكتور أحمد هيكل :

الأدب القصصى والمسرحى فى مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ . ص ١٦ .

(١٢) فرويد ، سيجموند :

حياتى والتحليل النفسى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ . ص ٤٧ .

(١٣) مترام ، ف . هـ :

الأساس الجسمانى للشخصية . تأليف ف . هـ . مترام وترجمة عبد الحافظ حلمى محمد . القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط . ١٩٦٦ .

(١٤) أنستازى ، آن وآخرون :

ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية . جـ ٢ تأليف آن انستازى وآخرين ، وترجمة د . أحمد زكى صالح وآخرين ، إشراف الدكتور يوسف مراد . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ص ٥٢٩ .

(١٥) الدكتور عبد المحسن طه بدر :

تطور الرواية العربية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ص ٣١٣ .

(١٦) الدكتور أحمد أمين :

علمتنى الحياة . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٣ . ص ٣٠ .

(١٧) **الدكتور عبد المحسن طه بدر :**

تطور الرواية العربية ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ . ص ٣٥٦ .

(١٨) **الدكتور أحمد أمين :**

فيض الخاطر . جـ ٩ . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٥ . ص ٩٥ .

(١٩) **الدكتور عثمان أمين :**

الجوانية . القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٤ . ص ٦٣ .

(٢٠) **الدكتور يوسف مراد :**

مبادئ علم النفس العام . ط ٢ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٤ ص ١٩٠ .

(٢١) **عبد الرحمن بن خلدون :**

مقدمة ابن خلدون . القاهرة ، المطبعة البهية ، ص ٥٠٩ .

(٢٢) **أبو هلال العسكرى :**

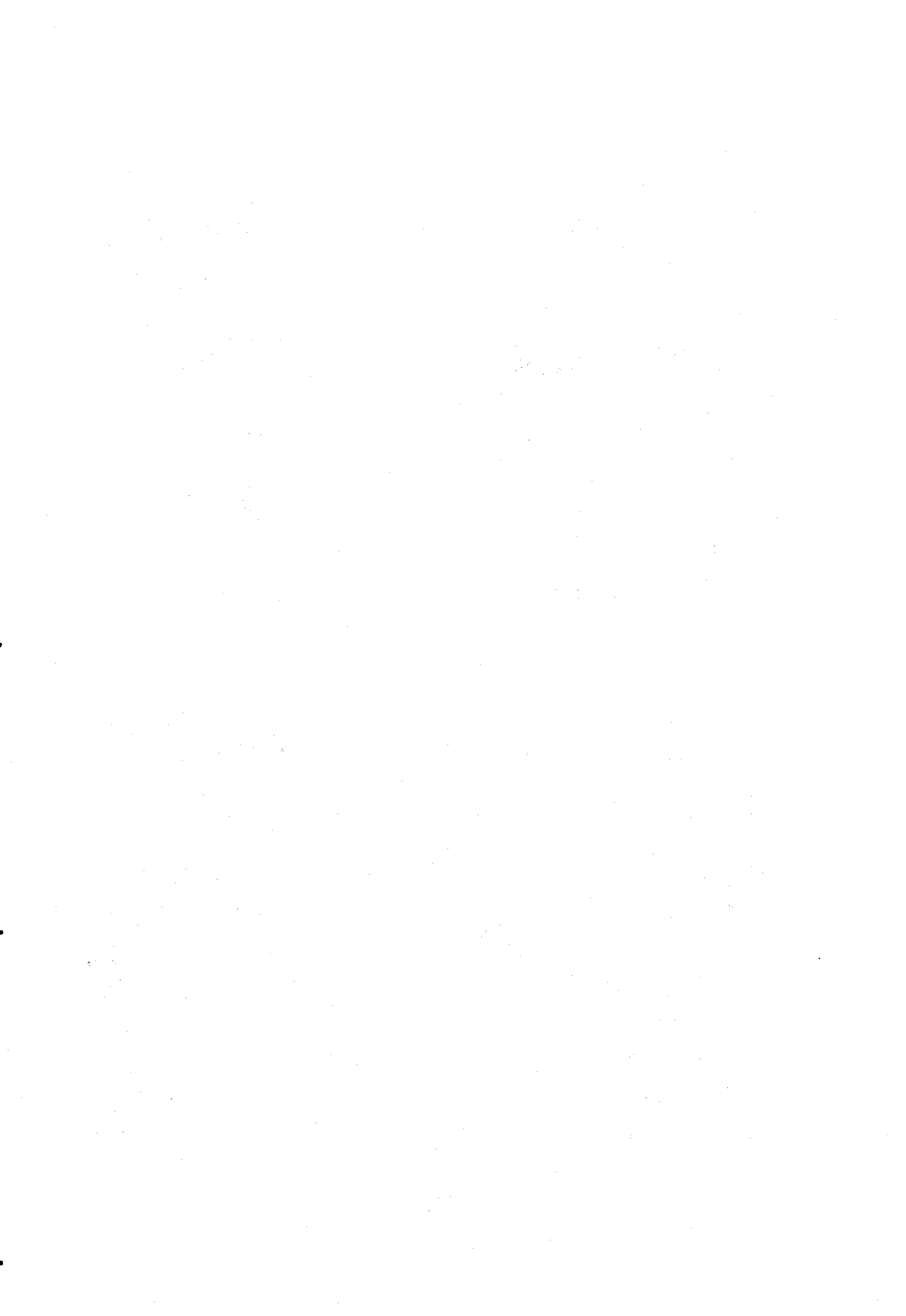
كتاب الصناعتين . ط ٢ ، القاهرة ، المكتبة الجديدة . ص ٦٦ .

(٢٣) **سارتر . ت :**

سيرتى الذاتية ـ الكلمات . تأليف ت . سارتر وترجمة سهيل ادريس/ بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٤ ص ١٢١ .

* * *

× ذكرنا هذه المراجع والمصادر بالاضافة إلى ما تضمنه متن الكتاب والقوائم السابقة وما ذكر فى صلب المادة من المراجع والمصادر .



فهرست

الموضـوع	الصفحـة

الموضوع | الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
● الجبل الذي صار سهلا		الأستاذ أحمد قنديل
● من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
● عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
● التنمية قضية		الدكتور محمود محمد مسفر
● قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
● الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
● الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● غدا أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
● موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور على طلال الجهني
● أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
● نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
● إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
● رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
● شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
● عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
● تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين با سلامة
● وقفة		الدكتور عبد الله حسين با سلامة
● خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
● أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
● علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
● الابحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
● طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
● التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● الحضارة تحد		الدكتور محمود محمد مسفر
● عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
● الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
● ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
● بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
● أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد على مغربي
● النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
● قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
● نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
● نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
● السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
● قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

● عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
● افكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
● فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
● خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
● نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
● المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
●تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله با سلامة
● خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله ال الشيخ
● السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● جسور الى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
● تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
● الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
● قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
● ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي
● زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
● الشوق اليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
● أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
● قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبد السلام الفارسي
● نشأة وتطور الاذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
● الاعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
● الجنس الناعم في ظل الاسلام		الشيخ سعيد عبد العزيز الجندول
● ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري

تحت الطبع :

● قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
● إليها	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
● حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
● غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
● نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● شئ من حصاد		الأستاذ حامد مطاوع
● الاعمال الشعرية لطاهر زمخشري		الأستاذ طاهر زمخشري
● تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن عبد الله ال الشيخ
● معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى العقيلي
● الاسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله با سلامة
● قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● أيامي ..		الأستاذ أحمد السباعي
● ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
● مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
● دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
● من حديث الكتب	(ثلاثة أجزاء)	الأستاذ محمد سعيد العامودي
● الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري

- ديوان السلطانيين — الشيخ محمد بن أحمد العقيلي
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- هكذا علمني ورد زورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- وحي الصحراء — الأستاذ عبد الله بلخير، الأستاذ محمد سعيد المقصود
- لجام الأقلام — الشيخ أبو تراب الظاهري

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الادارة دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الادارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
- الحضارة الاسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقيلة
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مبادئ القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الانجليزية) — الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي

تحت الطبع :

- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- تاريخ طب الاطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم



صدر منها :

العنوان		المؤلف
● حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
● دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
● التخلف الاملائى		الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
● ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	إعداد إدارة النشر
● ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
● تسالي	(من الشعر الشعبي)	الدكتور حسن يوسف نصيف
● مجلة الأحكام الشرعية		الشيخ أحمد بن عبد الله القاري
	(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
● النفس الانسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
● خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
● واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
● صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
● مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
● النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
● الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
● الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
● رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
● العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
● أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
● محاضرة في اسبوع الشيخ محمد إبن عبد الوهاب		الشيخ محمد بن احمد العقيلي
● مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
● ماذا تعرف عن الأمراض؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
● جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
● القرآن .. وبناء الانسان		الأستاذ صلاح البكري
● اعترافات ادبائنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ علي بركات
● الطب النفسي معناه وأبعاده		الدكتور محمد محمد خليل
● الدليل الابجدي في شرح نظام العمل السعودي		الدكتور عاطف فخري

تحت الطبع :

العنوان		المؤلف
● الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد با قازي
● رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
● الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد با جودة
● الزمن الذي مضى		الأستاذ صالح ابراهيم
● الأسرة القرشية .. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبوهشام عبد الله عباس بن صديق
● البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد حيداوي
● وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
● الحجاز واليمن في العصر الأيوبي		الدكتور جميل حرب محمود حسين
● ملامح وأفكار مضيئة		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
● أضواء على نظام الأسرة الاسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

رسائل جامعية

صدر منها :

العنوان		المؤلف
● صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزي
● العثمانيون والامام القاسم بن علي في اليمن		الأستاذة أميرة علي المداح
● الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت		الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز ال سعود
● الخراسانيون ودورهم السياسي		الأستاذة ثريا حافظ عرفة
● تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف		الأستاذة فوزية حسين مطر
● القصة في أدب الجاحظ		الأستاذ عبد الله با قازي
● النظرية التربوية الأسلامية		الأستاذة امال حمزة المرزوقي

تحت الطبع :

العنوان		المؤلف
● نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون		الأستاذ رشاد عباس معتوق
● افتراءات فليب حتى .. وبروكلمان على التاريخ الاسلامي		الأستاذ عبد الكريم علي باز
● الامكانيات النووية للعرب وإسرائيل		الأستاذ صدقة يحيى فاضل مستعجل
● الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية		الأستاذ نبيل عبد الحى رضوان
● دور المياه الجوفية في مشروعات الرى والصرف بمنطقة الاحساء بالمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور فايز عبد الحميد طيب
● دراسة اثنو غرافية لمنطقة الاحساء	(باللغة الانجليزية)	الدكتور فايز عبد الحميد طيب
● الجانب التطبيقي في التربية الاسلامية		الأستاذة ليلى عبد الرشيد حسن عطار
● اساليب التربية المعاصرة في ضوء الاسلام		الأستاذة فتحية عمر رفاعي الحلواني

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

العنوان	المؤلف
● جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
● الديك المغرور الفلاح وحماره	الأستاذه فريده محمد علي فارسي

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
● جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
● حكايات للأطفال	الأستاذ عزيز ضياء
● قصص للأطفال	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة ـ الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاء
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفار ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

- بطوط وكتكت
- النخلة الطيبة
- السمكات الثلاث
- الصرصور والنملة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia